

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



عدد خاص بذكرى ثورة الملك والشعب



السنة الثانية والستون - العدد 429 ذو الحجة 1440 هـ / غشت 2019 م

429

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالكراسات الإسلامية وبشؤون النفاة والبكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الثانية والستون - العدد 429 ذو الحجة 1440هـ / غشت 2019م



أسسها
جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م



”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بنامية الإصلاح الديني، كما تُعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأممل
أن يلتفت مولها دُعاة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى ”مجلة دعوة الحق“ بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الإسلامية
الأمانة العامة للوزارة
البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhaj.gov.ma
البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhaj.gov.ma

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

يخلف الشعب المغربي - هذه السنة - الذكرى السابعة والستين لثورة الملك والشعب التي تعتبر إيماناً بتعمل المغاربة مسؤولية مواصلة الجهاد الأكبر القائم على رفع التحديات وتحفيز المنجزات.

إن احتفال المغاربة بهذه الذكرى في ظل إمارة المؤمنين يعتبر ثورة جديدة لاستكمال بناء المغرب الحديث، وإعلاء المغاربة المكانة التي يستحقونها، خاصة الشباب الذي يعتبره أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله الثروة الحقيقية للبلاد، لذا دعا بعضه الله إلى "وضع آليات عملية كهيئة بإحداث نفلة نوعية في تعيين الشباب على خلق المبادرات الصغرى والمتوسطة في مجالات تخصصاتهم وكذا دعم مبادرات التشغيل الذاتي وإنشاء المبادرات الاجتماعية..."

إن ذكرى 20 غشت وما تجمعه من مبادرات تدعو المغاربة دائماً إلى استلهام رمزياتها وجعلها حافزاً على المضي في ثورات متجددة على الصعيدين الوطني والدولي.

ومعلوم أن رأس هذه الثورات وسنامها هو ما فام به جلالة المغفور له محمد الخامس لحبيب الله ثراه بمشاركة أوفياء شعبه المخلصين الذين جاهدوا معه في الله حق جهادهم حتى حففوا ما وعد الله به من عظيم الثواب وحسن المآب.

إن الاحتفال بهذه الذكرى مناسبة للتمسك بوحدة المغرب واستقراره والنهوض بتنميته وتقدمه، وتحفيز تطلعات أبنائه.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نتوجه إلى العلي الفخير بالعلماء بالرحمة والمغفرة ليصل التحرير والوحدة لجلالة الملك المجاهد محمد الخامس لحبيب الله ثراه، ووارث سره في الكفاح لجلالة الملك الباني الحسن الثاني أكرم الله مثواه، وكافة الشهداء الأبرار.

لذا يسعد هيئة تحرير مجلة الدعوة الحق أن تخصص هذا العدد للذكرى السابعة والستين لثورة الملك والشعب، وذلك بمساهمة مجموعة من العلماء والأساتذة والباحثين.

ملب العدد

ذكرى ثورة الملك والشعب شهادة تاريخية على التحام العرش والشعب

ذ. عبد الحق المريني
مؤرخ المملكة والناطق الرسمي
باسم القصر الملكي

لا يختلف اثنان أن العرش المغربي كان الراعي الأول للحركة الوطنية التي قامت على إثر الاصطدامات التي أثارها تعنت المقيمين العامين الفرنسيين، ورميهم عرض الحائط بكل مطلب تقدمت به الحركة الوطنية، من أجل التحرر من قيود الحجر والحماية. وهذا العرش هو الذي منح هذه الحركة القوة الوثابة، وغذاها بتوجيهاته النيرة وحماها من كيد المتآمرين.

فبدأت أنظار الاستعمار الفرنسي تتجه إلى العرش المغربي، وتفكر في تدبير المؤامرات ضده لما عبر عنه ملك البلاد من أفكار تحريرية، ولما سطره من منهج قويم ليسلكه شعبه الوثاب للحصول على السيادة والعزة والكرامة. وكانت هذه المؤامرات المبيتة تهدف إلى الحيلولة دون اتصال الملك بأفراد شعبه لا اعتقاد مدبريها الواهي أن دوام اتصال الملك بشعبه هو ضمان لانتصار المبادئ التي يؤمن بها ويعمل من أجلها، ولذلك حاولت هذه المؤامرات دون جدوى أن تخذ من هذا الاتصال. ولكن ذلك لم يزد الشعب المغربي إلا تعلقا بملكه، ولم تزد العلاقة بين الملك والشعب إلا متانة وقوة. فقام السلطان سيدي محمد بن يوسف رحمه الله بتحديات عظمى ضد المحتل الغاصب، وأعلنها ثورة ملكية شعبية إلى أن يتنصر الحق على الباطل.

وهكذا انطلقت "الشرارة الأولى" لهذه الثورة يوم 9 أبريل 1947م، حيث ألقى جلالته خطابه التاريخي بمدينة طنجة، وقال فيه رحمه الله: "إن حق الأمة المغربية لا يضيع ولن يضيع، فما ضاع حق من ورائه طالب. فنحن بعون الله وفضله على حفظ كيان البلاد ساهرون، ولضمان مستقبلنا الزاهر

المجيد عاملون، ولتحقيق تلك الأمنية التي تنعش قلب كل مغربي سائرون". وكانت الأمنية هي استرداد الشعب المغربي لحرية وكرامته وعزته واستقلال بلاده.

وكان رد فعل المقيم العام الفرنسي الجنرال جوان الشرس أن خلق أزمة بين القصر والإقامة العامة سنة 1951م بهجومه على القصر الملكي بدباباته مهددا بالويل والثبور، ولكنه في آخر المطاف خانته جرأته فارتد على أعقابها عائدا إلى الإقامة العامة منهزما مدحورا.

وأشعل سيدي محمد بن يوسف طيب الله مثواه "الشرارة الثانية" للثورة يوم 18 نونبر سنة 1952م بمناسبة حلول الذكرى الفضية لعيد العرش المجيد حين طالب في خطاب العرش الذي ألقاه بمشور القصر الملكي بالرباط، بإلغاء نظام الحماية جملة وتفصيلا حين قال رحمه الله: "إن نظام الحماية (هو) كقميص وضع لطفل صغير فكبر الطفل وبقي القميص على حاله، وبذلك أصبح غير صالح لأن يلبسه هذا الرجل الراشد". ويعني به المغرب الأبي.

ثم اشتعلت "الشرارة الثالثة" القاضية لهذه الثورة يوم 20 غشت سنة 1953م حيث وصل إلى القصر الملكي في ذلك اليوم المشؤوم خلف الجنرال جوان الجنرال "كيوم" مرفوقا بالجنرال "ديفال" قائد القوات الفرنسية بالمغرب، وقابل جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه بقاعة العرش وخاطبه قائلا: "إن مصلحتك أن تكون مع فرنسا وإن لم تكن مع فرنسا فإننا سنطلب منك أن تتنازل عن العرش المغربي"، فأجابه سيدي محمد بن يوسف رحمه الله عليه قائلا: "هذه أمانة في عنقي أئتمني عليها الشعب المغربي فلن أخونها، وفرنسا قوية فلتفعل ما تريد وما تشاء..."، وإذا كانت الحكومة الفرنسية تعتبر الدفاع عن الحرية وعن الشعب جريمة تستحق العقاب، فإني متمسك بهذا الدفاع الذي يستحق الشرف والمجد. وكان الاعتداء الغاشم على العرش المغربي والجالس عليه ليلة عيد الأضحى يوم الخميس 9 ذو الحجة 1352هـ/ الموافق 20 غشت 1953م. ووقع نفي سيدي محمد بن يوسف وأسرته الشريفة إلى المنفى السحيق، واعتقد مدبرو هذا العمل الشنيع بأن مبادرتهم الدنيئة كانت بمثابة الخطوة الحاسمة للقضاء على السيادة المغربية، ولكن في الحقيقة كانت بمثابة أول بادرة للقضاء على نظام الاحتلال بالمغرب. فأعلنها العرش والشعب ثورة عارمة على الاحتلال بقوة الحجة وقوة الكلمة وقوة السلاح.

فكان رد الشعب المغربي قويا وعنيفا، وكانت العمليات الفدائية ومعارك جيش التحرير الضارية، وسقط الشهداء الأبرار في ساحة التضحية والفداء. وأصبح جلاله الملك المغفور له محمد

الخامس قائد ثورة التضحية والتحرر التي حقق رجالها المعجزات بالكفاح والصمود والثبات على المبدأ، إلى أن عاد جلالته من منفاه السحيق يوم 16 نونبر 1955م، ظافرا منتصرا، إلى عرشه حاملا في يده الكريمة وثيقة الاستقلال والحرية، وخاطب شعبه المجاهد بقوله: "أيها الشعب الوفي قد أخلصت الوفاء كما أخلصت وأديت الواجب كما أديت، وها أنا ذا بينكم كما تعهدونا حب البلاد رائدنا وخدمتها غايتنا". وجاهد جلالته رحمه الله لوضع أسس هذا الاستقلال مدة ست سنوات إلى أن التحق بالرفيق الأعلى يوم الأحد 26 فبراير سنة 1961م طيب الله مثواه وأسكنه فسيح الجنان.

وقد أطلق جلالته رحمه الله على هذه الثورة في ذكرائها الثالثة لسنة 1956م "ثورة الملك والشعب"، التي قال عنها وارث سره ورفيقه في الكفاح والنضال جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه في إحدى خطبه: "فلو لم تكن مسيرة الشعب والعرش مسيرة تاريخية، حتى أصبحت جبلية عندنا، لما تمكنا في القرن الذي نحن فيه من أن نقوم بثورة الملك والشعب".

فكلما حلت هذه الذكرى منذ بدء الاحتفال بها سنة 1956م، إلا وجسدت التحام العرش بالشعب والشعب بالعرش، وطموحاتها وآمالها في التنمية والنماء والرقى والازدهار، وفي تحقيق أعظم المكاسب وأعلى الأمن، وفي ربط الماضي الحافل بالأجداد بالحاضر المشرق، وفي الحفاظ على وحدة المغرب الترابية والوطنية والدينية، وفي تقوية الروابط وتمتين الأواصر بين كافة المواطنين دون تميز واستثناء.

وطبقا لروح ثورة الملك والشعب التي لا تزيد مع مرور الأحقاب إلا رسوخا وخلودا، سار جلالة الملك محمد السادس نصره الله خير خلف لخير سلف على نهج أسلافه الميامين، وطبع المغرب في هذه الألفية الثالثة بطابع الحداثة والتطور والجدية في العمل المتواصل الدؤوب من أجل تحقيق جميع الطموحات والإنجازات، والأولويات التي يكرس لها جلالته جميع الطاقات البشرية المغربية ذات الكفاءات العالية، والعمل على ترسيخ المقومات الوطنية والثوابت التاريخية.

سوسيولوجيا أدب المقاومة في إفريقيا الجنوب المغربي نموذجاً

محمد الترالي

باحث بمركز الدراسات النفسية
والاجتماعية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
ظهر المهرارز - فاس

لا يخفى على الناظرين والمتابعين للسياق التاريخي الإفريقي بكونه عرف حركة كبيرة الهدف منها مقاومة الاستعمار؛ تمخضت عنها مجموعة من التيارات التحررية والزعامات المحلية والشيوخ الكبار الذين دافعوا بشرف وبأمانة عن حوزة إفريقيا ومقدساتها؛ كل ذلك تجلى في الروابط المتينة التي جمعت كل العناصر الحضارية المشكلة لهوية إفريقيا الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية المبنية على التنوع والخصوصية من جهة، والوحدة والتكامل من جهة ثانية، والضاربة في جذور التاريخ، وعمق الثقافة، ووحدة المصير المشترك للشعوب الإفريقية.

وهنا تتداخل المقاومة مع الأدب في قضيتي التحرر الإنساني وإثبات الذات فيما اصطلح عليه بالأدب المقاوم؛ بحيث سوف تبرز أهمية الدور الذي يؤديه الأدب في محاولة منه لنقل التراث الشفهي (اللغة الشفهية) الذي يحث على المقاومة وترجمته إلى أشعار ومأثورات وحكايات؛ أشكالاً شعرية ونثرية تُجلى اهتماماته عبر نقل عقيدة المجتمع الدينية والسياسية، وإنجازات أفراد البطولية. وفي هذا الصدد يرى الشاعر الإفريقي "مازيسي كونين" في مؤتمر عن الأدب المعاصر في جنوب إفريقيا بجامعة تكساس سنة 1975م: "إنني أقوم بتحليل الماضي والحاضر كي أخلق رؤية مستقبلية فالدين الإفريقي لا يرى انفصلاً بين الأجيال السابقة والحاضرة والمستقبلية وأنا أحاول تعميق هذه الرؤية بخلق معادلة أدبية تؤكد هذا المعنى".

ويؤكد "كونين" في قصيدته "قوة الإنسان فوق الأشياء" على أهمية الإنسان فكل الأشياء من دونه فارغة، ويرفض "كونين" أن يكون الأدب مجرد أداة للتسلية وقتل الفراغ لدى القارئ أو حالة من التفرغ النفسي لدى المبدع ذاته، وإنما يرى أهمية دور الأدب في ترسيخ القيم الثقافية والاجتماعية الأصيلة والتصورات الفلسفية الجادة كما كان يفعل الشاعر الشعبي في عصور ما قبل الاستعمار، ثم يبرز لنا في "قصائد المقاومة الإفريقية" حق الشاعر في الاحتجاج، تلك السمة الغالبة على أدباء جنوب إفريقيا مع الاستعانة بالمعتقدات الإفريقية التي غالباً ما تخلق تصادماً مع الأوروبيين والمناداة بأن الأرض ملك للجميع، ولا يستطيع أحد أن يملكها أو يقوم بتقسيمها¹.

وفي هذا الصدد يتساءل "كونين" في قصيدته "الأرض الأم" عما أسماه بحماقة الحدود القومية:

أولئك الذين في نهاية الأرض

لماذا لا يشربون من

نفس الزجاجة

ويشيدون بيوتهم

في الوادي

ويكبرون مع أطفالنا²

ومن هذا المنطلق أخذنا مثالا عن حركة المقاومة الإفريقية في الجنوب المغربي، وهي حركة جيش التحرير وسباق نشأتها وتطورها. فما هو الدور الذي أدته هذه الحركة في تشكيل هوية المقاومة في المغرب؟ وما هي تجلياتها الآنية في العقل الجمعي للذاكرة التاريخية المغربية؟

أولاً: سوسولوجيا أدب المقاومة

تعرف السوسولوجيا أو علم الاجتماع بتلك الدراسة العلمية للمجتمع التي تهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية والظواهر الإنسانية وتجليها وتظهرها وتفسير العوامل المسببة لها وتتكلف

1 - صلاح سليمان، الشعر الإفريقي رصد أدبي لمعاناة القارة السمراء، مجلة إيلاف الإلكترونية، عدد 6142، 16 مارس، 2018م.

2 - المرجع نفسه.

بتقديم تفسيرات علمية عن الظاهرة القيد الدرس، وينقسم علم الاجتماع إلى مجموعة من التخصصات الفرعية؛ والتي سنقدم منها على سبيل المثال سوسيولوجيا الثقافة التي تهتم بدراسة الثقافة باعتبارها نسقاً وضرورة من العادات الاجتماعية والتقاليد والرموز والأشكال وسائر العوائد التي يكتسبها الفرد بوصفه عضواً في المجتمع، كما بين ذلك "تايلور" في دراسة المجتمعات البدائية.

وسوسيولوجيا الأدب: هو فرع من العلوم الثقافية أو سوسيولوجيا الثقافة الذي يهتم بدراسة وتحليل الإنتاج الأدبي في بعده السوسيولوجي، والآثار الاجتماعية المترتبة عن ذلك.

وإذا فتحنا معاجم وقواميس اللغة وجدنا أن "ابن منظور" يعرف الأدب بـ: "الأدب: الذي يتأدّب به الأديب من الناس؛ سُمِّيَ أدباً لأنه يأدّب الناس إلى المَحَامِد، وَيُنْهَاهُم عن المَقَابِح. وأصل الأدب الدُّعاء، ومنه قيل للصَّنِيع يُدْعَى إليه الناس: مَدْعَاةً وَمَأْدُبَةً"³.

وفي القاموس المحيط نجد "الفيروزآبادي" يعرفه بـ: "الأدب: مُحَرَّكَةٌ: الظَّرْفُ، وَحُسْنُ التَّنَاولِ، أدَبٌ كَحَسَنَ، أدبا فهو أديب، جمع: أدباء. وأدبه علمه فتأدّب ويتأدّب"⁴.

والأدب اصطلاحاً: هو ذلك الفن والإبداع الذي ينقل عن طريق اللغة.

يعتبر الأدب محصلة نهائية لتداخل عوامل مجتمعية يحضر فيها الروحي والنفسي والجمعي والتاريخي؛ بمعنى أن الأدب ملازم للأدب في شروط الإنتاج وتفصيله أيضاً. فالأدب لا يمكن أن ينفصل عن سياقه المجتمعي، فكل نص أدبي ليس سوى تجربة اجتماعية، عبر واقع ومتخيل، وبالرغم من كل المسافات الموضوعية التي يشترطها بعض الأدباء لممارسة الأدب، فإن المجتمع يلقي بظلاله على صيرورة العملية الإبداعية، بل ويوجه مساراتها الممكنة في كثير من الأحيان، فلا أدب بدون مجتمع، ولا مجتمع بدون أدب، فلكل مجتمع أدبه ولكل أدب مجتمعه الذي ينكشف من خلال نصوصه ورواياته الشفهية وأشعاره وأغانيه⁵.

3 - ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، الجزء الأول، دار صادر، بيروت، 2003م، ص 206.

4 - محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق، محمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الثامنة، مؤسسة الرسالة، 2005م، ص 58.

5 - عبد الرحيم العطري، مقدمة في سوسيولوجيا الأدب، الحوار المتمدن، عدد 1716-2006م. <http://www.ahewar.org>

يحدد لنا البراديجم السوسيولوجي في الإنتاج الأدبي الذي يتجسد عبر تدخل السوسيولوجيا كعلم للمجتمع في ثنايا الأدب، باعتباره نتاجاً لظروف اجتماعية ساهمت في نشأته وتشكله كإجابة عن الواقع المعيش، فالأدب السوسيولوجي أو سوسيولوجيا الأدب إذاً هو مبحث من مباحث علم الاجتماع العام، والذي يدرس الظاهرة الأدبية والإنتاج الأدبي في بعدهما الاجتماعي، والأدب المتحدث عنه هنا هو أدب المقاومة.

تعد المقاومة أنبل الظواهر شرفاً في التاريخ الإنساني، فهي على اختلاف صورها وتباين سياقاتها استجابة لمعنى مركز فينا فطرة؛ وهي بكل معانيها علامة على سلامة الفرد والجماعة نفسياً وقيماً، ولعله لهذا المعنى كان إجماع الشرائع السماوية والدساتير على حق المظلوم في ردّ الظلم، والتواصي بمناصرة كلّ طالب حق. يمثل الاحتلال شرط المقاومة المباشر، وإليه توجه فعلها بغاية استبعاده لأنه يمنع الوجود الطبيعي للحياة. وإذا نظرنا في حاضر المقاومة وجدناها ضمن سياق يميزه فرز سياسي على قاعدة الحرية قام على أنقاض فرز أيديولوجي عاشت على وقعه حركة التحرر العربي حيناً من الدهر، فالتقى اليوم من باعدت بينهم المرجعيات المختلفة بالأمس، فانفتحت البصائر على حقيقة أن الطريق إلى العدل بعدد الخلائق وأن سبيل الحرية سالكة أمام من اختارها وأخلص⁶.

إن التاريخ العريق والماضي التليد للشعوب الإفريقية التي حددت مشروعاً مجتمعياً الهدف منه طرد الاستعمار بوسائله المختلفة، وهذا الأمر هو نتاج لعوامل نفسية ودينية وتاريخية واجتماعية وسياسية ترجمت في الممارسة الأدبية الناقلة للواقع الاجتماعي المعيش، والتي ترجمت في شكل أشعار وأنثار تحكي التجربة الإنسانية الأليمة مع قساوة الاستعمار البغيض من جهة، ومن جهة أخرى تروي البطولات والأعجاد التي حددت شجاعة المقاومين عبر مقاومتهم الباسلة تأكيداً للذات عبر حقها في الانعتاق والتحرر، وهو ما ترجم على الأرض عبر تأسيس الجيش الشعبي الوطني الإفريقي.

ثانياً: بؤادر تأسيس جيش التحرير

إن الإرهاصات الأولى لتشكيل جيش التحرير في الجنوب المغربي بدأت كإجابة فورية على الواقع القائم الذي كانت تعرفه المنطقة المغاربية المتمثل في الاحتلال الفرنسي والإسباني فكانت هناك

زهير اسماعيل : 4/4/2010/opinions/knowledgegate/www.aljazeera.net - 6

محطات حاسمة من تاريخ جيش التحرير تمثلت في انخراط أغلب الصحراويين المغاربة فيه وذلك للدفاع عن حوزة البلاد والعباد من الهيمنة الاستعمارية؛ وبالتالي أداء "فريضة الجهاد" كما كان في المخيلة الشعبية والعقل الجمعي لعموم الناس، وهكذا نشأت فلسفة المقاومة المغربية.

على إثر ذلك تأسست نواة جيش التحرير بغية تحرير التراب المغربي من الاستعمار الفرنسي والإسباني، وكانت فكرة التأسيس لا بد من أن تترجم نفسها على أرض الواقع لاسيما بعد بداية انعتاق وتحرير الشعوب الإفريقية من هيمنة الاستعمار. وكان من بين الأهداف الأولى لهذا الجيش تحرير جميع الأقطار المغربية من الاستعمار، وعودة السلطان محمد الخامس، طيب الله ثراه، من المنفى.

لم يكن استقلال المغرب غاية في حد ذاته، بل كان بمثابة حافز لتحرير جميع الأراضي المغربية المحتلة من قبل فرنسا وإسبانيا، وهي الأراضي التي كانت الحركة الوطنية المغربية تعتبرها تابعة لمجال النفوذ المغربي من الناحية التاريخية. وهكذا استقرت وحدات من جيش التحرير بكل من واد نون وبويزكارن وكلميم ووادي درعة وغيرها، بهدف فتح جبهة صحراوية للمقاومة بالجنوب المغربي. وقد انضم على الفور إلى صفوف جيش التحرير مجموعة من الصحراويين معلنين بذلك عن انخراطهم في الكفاح المسلح ضد قوى الاستعمار، وهذا ما كان له بالغ الأثر في صفوف القبائل التي أيدت هذا التوجه بأغلبية ساحقة⁷؛ هكذا يتبين أن حركة جيش التحرير في المنطقة انخرط فيها أغلب الصحراويين⁸؛ الأمر الذي تجلّى في الدور الكبير الذي قامت به هذه الحركة في مقاومة الاستعمارين الفرنسي والإسباني في: "تندوف" و"أم لعشار" و"ير أم كرين" وغيرها من المناطق الصحراوية المغربية.

لقد دعا جيش التحرير الوطني إذاً جميع المواطنين المغاربة إلى الكفاح المستمر حتى تحقيق الاستقلال التام للأقطار المغربية، وأكد على عودة السلطان محمد الخامس من منفاه، ومن ضرورة طرد المستعمر من المغرب.

وكان جيش التحرير الوطني بمثابة الحركة الجينية التي أفرزتها المقاومة المسلحة التي قامت بها القبائل المغربية إبان الاحتلال الفرنسي، حيث امتدت المقاومة لتصل التراب الموريتاني، وبرز في

7 - ببيرون، الساقية الحمراء مهد ثقافة الغرب الصحراوي، ترجمة وتقديم حسن حافظي علوي ومحمد الناصري، تمويل الطبع: وكالة الإنعاش والتنمية الاقتصادية والاجتماعية في أقاليم الجنوب بالمملكة - وكالة الجنوب - طبع في تركيا، 2004م، ص 286.

8 - Hodges Tony, Sahara Occidental, origines et enjeux d'une guerre du desert, traduit de l'Anglais par domonique kugler ed, L'harmattan, Paris 1987, p. 113.

هذا الصدد الشيخ ماء العينين الذي كان يشكل خطراً حقيقياً على المصالح الغربية في المنطقة، انطلاقاً من مرجعيته الفقهية التي أعطته مكانة دينية هامة بين الأهالي، الأمر الذي حتم عليه استنفار القبائل الصحراوية للقيام بالعمليات الجهادية. وقد تناولت الإسطغرافية الأجنبية خاصة الفرنسية والإسبانية الشيخ ماء العينين وأبناءه تناولاً يضيف عليهم طابع الشوفينية والتطرف اتجاه الغرب ومؤسساته⁹.

ولقد كانت سنة 1956م محطة مهمة في تاريخ المنطقة إذ ارتبطت بالجو الذي كان يعيشه المغرب والمتمثل في البدايات الأولى للاستقلال بعد رجوع محمد الخامس من المنفى. في هذه السنة وبالضبط في شهر نونبر انعقد مؤتمر "أم الشكاك"، بمشاركة ممثلي كل القبائل الصحراوية، وكانت تلك المنطقة ذات شأن مهم حيث انعقد فيها مؤتمر دام ثلاثة أيام متتالية، نوقشت فيه مجموعة من المواضيع على رأسها موضوع استقلال المغرب وعودة ملك البلاد، وعين فيه الوفد الذي سيزور الرباط لمبايعة الملك محمد الخامس، وتهنئته على رجوعه واستقلال البلاد، وحته على الدفاع عن المناطق التي ما زالت تحت وطأة الاحتلال الإسباني والمطالبة باستقلالها¹⁰. وتجدر الإشارة في هذا المنوال أن كل القبائل الصحراوية وباختلاف شرائحها قد شاركت في جيش التحرير ولعبت دوراً مهماً في المقاومة والجهاد. وإضافة إلى أفراد جيش التحرير في الصحراء وقيادي جيش التحرير على المستوى الوطني، فقد كان جيش التحرير يضم عناصر قيادية أخرى من موريتانيين وجزائريين ونخص بالذكر حرمة ولد بابانا، وصالح بن عسو الجزائري ليكتمل بذلك البعد المغاربي لجيش التحرير¹¹.

وذلك ما يظهر من خلال البحث الذي قامت به قيادة جيش التحرير من خلال مراسلاتها من مختلف نواحي الصحراء المغربية وموريتانيا يؤكد أن جميع القبائل الصحراوية تؤيد حركة جيش التحرير حيث انخرط منهم نفر في صفوف حزب الاستقلال، ومنهم من حمل السلاح في صفوف جيش التحرير، ومنهم من سعى للالتحاق به عندما يطلب منه ذلك، وقد ذكر كذلك أن عدداً مهماً من الجنود الصحراويين انسحبوا من الجيوش الاستعمارية والتحقوا بصفوف جيش التحرير أو كانوا

9 - مجموعة باحثين، ناجيه عمر، جيش التحرير، الصحراء الأطلسية - المجال والإنسان -، منشورات وكالة الجنوب، 2007م، الرباط، ص 157.

10 - المرجع نفسه، صص 157-158.

11 - المرجع نفسه، ص 164.

فرقا مسلحة بجانب قبائلهم، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر لمراقبة الحالة الجديدة في المنطقة، آخذين كل الاحتياطات اللازمة من العدو المتربص، كما كانوا ينتظرون اللحاق بأفواج جيش التحرير ليشاركوا في حرب التحرير الوطنية ضد الاستعمار¹².

إن تاريخ المقاومة في المنطقة هو تاريخ حافل بالأعاجاد والبطولات الذي ولد جيلا متشبعًا بثقافة التحدي والإصرار من أجل نيل المبتغى منحاذاً لقضية التحرر بوصفها قضية إنسانية كونية تكلفت الثقافة الأدبية للمجتمع - الرواية والقصة والشعر والأهازيج - بنقله للأجيال عبر عملية التنشئة الاجتماعية.

ثالثا: تجليات أدب المقاومة في الثقافة الحسانية

ومما تقدم؛ يظهر أن أول احتكاك للبيضان بالاستعمار عرف مقاومة وخصوصا عندما تم الفصل فيها عبر مجموع فتاوى للعلماء البيضان الذين فصلوا في الأمر ولعل من أبرزهم الشيخ "محمد المامي"، و"الشيخ ماء العينين" الذي كتب رسالة في ذلك تؤكد إلزامية الجهاد وخصوصا في مؤلفه الشهير "هداية من حار في أمر النصاري" وذلك بقوله: "اعلم علم يقين أن هؤلاء الكفرة الذين بصدد الكلام فيهم فاجأوا بلاد المسلمين لدخولهم فيها عليهم من غير إذن من أحد منهم لهم، فلذلك صار قتالهم واجبا على من يقربهم إذ هم دخلوا على إيمراكن ولا قدرة لهم على الدفع عن أنفسهم"¹³.

لقد عرفت العلاقة مع الوافد الجديد توترا تجلى في مقاومة القبائل الصحراوية للاستعمار وطرده من المجال الإفريقي البيضاوي عبر مجموعة من الهجمات على مراكز تواجد الفيلق الفرنسية حيث كان "غزّي"¹⁴ يتكون من قبائل: أولاد دليم، وأولاد أبي السباع، والرقبيات، والزركين حيث دمروا الفيلق الفرنسي المتواجد بضاحية انواكشوط من ناحية الشمال وقتلوا قائده الملازم ماك

12 - محمد بن سعيد أيت أيدر، صفحات من ملحمة جيش التحرير بالجنوب المغربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، يونيو 2001م، ص 109.

13 - الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل، هداية من حار في أمر النصاري، مخطوط رقم: 1477 بالخزانة العامة بالرباط، ص 4.

14 - غزّي (غزوة): هي السمة الموجدودة بكثرة في المجتمع البيضاوي، وهي الحرب الضروس التي كانت تقع بين مجموعة قبلية معينة ضد أخرى، بسبب الماء أو المراعي، أو جنوح لأحداث قد تحدث بين أفراد المجتمع، وغزّي هنا هو ضد القوات الفرنسية.

ماهون، وكان ذلك نموذجاً من آخر معارك المقاومة الباسلة وقد خلدت في ذاكرة الفاعلين الاجتماعيين عبر التغمي بها، ونظم الأشعار بصدها حيث قال فيها دذاه ولد عالي¹⁵:

الله الّ بيّه التّنزيـل	الجّهّاذ الـيوم افسـيـل
اذليم أوقّع بيّه أبغزيّه	انزلّ بيّه امن الله جبريل
بنهار هاذ زين اعليه	نفخ اهلك سابك اسرفيل
فيه اعلى الكفار التدمار	ذاك انهار انهار ازيار
أفيه دليم ازيان اتقوغيه	أفيه افرغ ياسر من لكار
أفيه اسع محمد امسيه	أفيه اسع من مال ابلانار
أفيه اذليم اغليط الفيه	أفيه الشان أغيظ الكفار

وبالرغم من التضيق على تحركات البدو بغية إيقاف عمليات الإغارة التي تقع بين الفينة والأخرى إلا أن ذلك لم يمنع من همة أفراد جيش التحرير وذلك بنقل السلاح خفية والرسائل بل ظهر إبداع أدبي شعبي وهو بيت القصيد في هذا الصدد يذكي حماس المقاومين ويدفع إلى توحيد الصف ضد طغيان قوات الاحتلال، ولقد قامت المرأة بأدوار طلائعية في تضميد الجراح ونقل الغذاء والدواء والسلاح ليلاً ومواساة الجرحى والمعطوبين. ومن تلك النصوص الإبداعية التي ساهمت في تهيج حماس أفراد جيش التحرير وإذكاء الحس القومي، يقول محمد المختار بن محمد محمود¹⁶:

كل سيف يفل سيف العدا	جردوا من صوارم العزمات
تسلب المارقين طعم الحياة	ثم ارمو العدى قنابل سـم
وعيشا مستطابا بطيب وصل الفتاة	واهجروا الأهل والخليـل

ويقدم علي العمري تفصيح حرفي لقصيدة محمود الراجي عن جيش التحرير:

15 - دحمان محمد، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، الطبعة الأولى، الرباط، 2006م، ص 170.

16 - دحمان محمد، دينامية القبيلة الصحراوية في المغرب بين الترحال والإقامة، دراسة سوسيو-أنثروبولوجية حول أولاد بالسباع، الطبعة الأولى، الرباط، 2012م، ص 220.

جيش التحرير لازال شريرا
وهذا كله بأمر القديـــــر
وأعطى لمحمد أفضيلة
أو عاقل من الأمية
القياد الذين يشاهدوا دوما
على الوادي أهله حمية
الجهاد الذي تعرف هي
من يوم الوطنية
الأحياء ازدادوا مزية
ترك الروم ألين من الحرير
خالق الأنبياء وأعطاهم نور وتقدير
فلا يغلظن صبياني
يتأكد على أن جيش التحرير أعطاه المولى هبة
والقوات نهار الانقضاء تكنة وجميع الأشرف
هذه مسألة لا تكفره
انزال الروم من الرؤوس
هكذا تركه الأسلاف
الमित مات مجاهدا¹⁷

وها هو حسنا الدويهي يثني ويحمد الرب على التحام العرش مع الشعب وعودة محمد الخامس
من المنفى ينقلها علي العمري عبر التفصيح الحرفي التالي:

أحمد مولانا بعدما أصبححت
لم تخلف للشعب شيئا ما قبيحا
جعلوا له تاريخ سبعمائة
حبسوه رفقة عائلته مدة عامين
وبعد شهرين من عودته
مارس بالتممام
وهو خامس القوم حينئذ
وأهل العزم الرسل طيبين
إذا حسدك أحد ما (يعدل فيه)
ليست ملساء في الدنيا فيه
أصابعه الخمسة مجتمعة
لما اشتد عليه الوقت (الأزمة)
وأضيف إلى ذلك خمس (1375هـ/ 1953م)
وحتى لا أنسى أضيف عام
حصل الاستقلال يوم خمسة
ورجع وخطب في المساء
وحتى تلم أيضا ملساء
خمس والصلوات خمسة
ويجعل يديه على فمه
ويموت ولن تعود ملساء¹⁸

وبعد عملية التحرير تم دمج جيش التحرير في صفوف القوات المسلحة الملكية

17 - العمري علي، المقاومة الصحراوية والعمل الوطني، (مقابلات ووثائق) منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء
جيش التحرير، مطبعة كانت برانت، الرباط، 2008م، ص 383.

18 - مرجع سابق، ص 380.

التي أنشد فيها محمد العلمي:

يا أسود البأس في يوم الفداء	يا جنود الحق يا رمز الوفاء
ومن العرش تلبون النداء	رمزكم في الملتقى حسن البلاء
تنشطون الحركة	أنتم نسور المعركة
في النهضة المشتركة	وللجهاد بركة
من وراء القائد الشهم الإمام	وحدوا الصف وسيروا للأمام
وهو قلب عينه ليست تنام ¹⁹	فهو يسعى دائماً نحو السلام

ويقول أيضاً:

ففيه لنا عز وفخر إذا يمشي	ألا بلغوا أزكى التحيات للجيش
وفيه ازدهار الشعب في السعي والعيش	وبالعزم والإخلاص راق سلوكه
وساحة ورش يضاف إلى ورش	سواعده بناءة لبلادنا
مدار شمس بالسناء الذي يعشى ²⁰	أرى المغرب الأقصى استحال بجيشه

خاتمة:

على ضوء ما سبق ذكره، يمكن القول بأن إفريقيا عرفت حركة مقاومة باسلة تمخضت عن مجموعة من الحركات التحررية الهدف منها طرد المستعمر الدخيل بغية نيل الكرامة الإنسانية التي تشكل انطلاقة من التحرر الإنساني، فقد قال فلاسفة اليونان قديماً ما يجعل الإنسان إنساناً هو حريته، وهذه المقاومة ترجمت إلى أعمال أدبية إبداعية في ما اصطلح عليه بالأدب المقاوم، ولعل المثال الذي قدمناه عن المقاومة الإفريقية نموذج جيش التحرر في الجنوب المغربي والذي أدى دوراً أساسياً في صون الهوية الوطنية عبر تشكل ثقافة المقاومة في البلاد المغاربية حتى أصبحت حاضرة بقوة في العقل الجمعي للذاكرة المحلية حيث ظل تناول معارك جيش التحرير محور الأحاديث اليومية في مناسبات اللقاء المختلفة، وخصوصاً بين جيل متشبع بثقافة نكران الذات، وصون الكرامة الإنسانية والذي عبّد بدماؤه الزكية طريق الحرية والاستقلال.

19 - عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، الطبعة الخامسة، دار نشر المعرفة، الرباط، 1997م، ص 262.

20 - عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، مطابع المغرب الكبير، الرباط، د.ت، ص 186.

موقف إسبانيا من الاعتداء على العرش

يوم 20 غشت 1953م

ذ. محمد الأندلسي

أستاذ باحث في التاريخ الحديث والمعاصر

- تطوان -

شكّلت مؤامرة عزل السلطان محمد بن يوسف، ونفيه إلى خارج الوطن، المدبرة من قبل الإقامة العامة الفرنسية يوم 20 غشت 1953م، مُنعطفا حاسما في مسار نضال الحركة الوطنية المغربية من أجل الاستقلال والحرية، فكانت بداية نهاية نظام الحماية الذي فرض على المغرب منذ سنة 1912م، حيث أثّرت هذه الحادثة الخطيرة على صورة فرنسا وسمعتها السياسية في العالم العربي والإسلامي كما في أوروبا، بل كان تأثيرها كبيرا على علاقتها بجارتها القريبة التي تُشاركها حماية المنطقة الشمالية من المغرب، ويتعلق الأمر بإسبانيا الفرنكوية.

لا نسعى هنا إلى تحليل حدث مؤامرة 20 غشت وإبراز سياقه التاريخي، ودوره في تحقيق الاستقلال، بقدر ما نروم، من خلال هذه الورقة البحثية المتواضعة، استجلاء موقف إسبانيا من هذا الاعتداء الشنيع الذي طال المغرب والأمة العربية والإسلامية في شخص جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه، ورصدٍ حيثيات وتفاصيل تبلور الموقف الإسباني، ودور الحركة الوطنية في الشمال في توجيه هذا الموقف لصالح الدفاع عن وحدة المغرب وعودة ملكه الشرعي إلى عرشه. مُعتمدين في مُقاربتنا لهذه الإشكالية التاريخية، على مادة مَصْدَرِيَّة مُعتبرة؛ تكونت بالأساس من التصريحات التي أدلى بها السَّاسَةُ والحُكَّامُ الإسبان، وعلى رأسهم المندوب السامي الإسباني بتطوان الجنرال غرسيا فالينيو (Garcia-Valiño)، ورئيس الدولة الإسبانية الزعيم فرانكو (Francisco) Franco، للصحافة

الإسبانية الصادرة بتطوان كصحيفة دياريو دي أفريكا¹ (Diario de Africa)، أو تلك الصادرة بإسبانيا كصحيفة أ ب ث² (ABC)، وهي التصريحات التي حرصت الصحافة المغربية الحزبية منها والحرّة، الصادرة بتطوان، على نقلها وتعريبها بهدف إفادة القارئ والمثقف المغربي، ووضعه في صورة الأحداث الجارية آنذاك، ويتعلق الأمر بجريدة الأمة، لسان حزب الإصلاح الوطني، والجريدتين المستقلتين، الشهاب³، والنهار⁴، هذا فضلا عن المصادر التاريخية العربية والأجنبية التي رصدت أحداث تلك الفترة الحرجة من تاريخ المغرب.

1 - موقف الحركة الوطنية في المنطقة الخليفة من مؤامرة 20 غشت 1953م.

دأبت الحركة الوطنية المغربية في المنطقة الخليفة - كما في المنطقة السلطانية - على الذود عن المقدسات الدينية والوطنية للشعب المغربي وصونها، وذلك من خلال كشف كل المؤامرات والمخططات الاستعمارية التي كانت تستهدف النيل منها، وفضحها، والعمل على إحباطها ووأدها قبل أن تصبح أمرا واقعا، ومُجابهتها والتصدي لها حتى بعد تنفيذها وفرضها. ومؤامرة عزل السلطان محمد الخامس من عرشه ونفيه خارج البلاد، التي نفذها المقيم العام الفرنسي كيوم في 20 غشت 1953م، سبقتها حملات مُغرصة، أعدتها الإقامة العامة الفرنسية على نار هادئة، مباشرة بعد فشل محاولة المقيم العام الأسبق جوان وإخفاقها⁵. وقد كان زعماء الحركة الوطنية في المنطقة الخليفة

1 - تعتبر صحيفة دياريو دي أفريكا (Diario de Africa) الصادرة في تطوان، الناطق الرسمي باسم سلطات الحماية الإسبانية، التي كانت تنشر عبرها معلومات ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمغاربة، في إطار الدعاية الاستعمارية الإسبانية. انظر:

- Mohamed Bouissef rekab : Diario de Africa, Del 20 Agosto De 1953, Al De Abril De 1956, revue de la faculté des lettres Tétouan, 5 eme année 1991, p 49 - 50.

2 - صحيفة أ ب ث (ABC)، صحيفة يمينية محافظة، تأسست في فاتح يناير 1903 من قبل الإعلاميين ألبرس أوصريو وطركواطو دي طينا، وقد تبنت ولا زالت تتبنى خطابا سياسيا بسيطا وعاميا موجها إلى قراء من مختلف الشرائح الاجتماعية، دافعت من خلاله عن ترسيخ النظام الملكي بإسبانيا، وبعد استيلاء فرانكو على الحكم تحولت أ ب ث إلى صحيفة رسمية دافعت عن السياسة الفرنكوية بأوساط الرأي العام الإسباني. انظر:

يوسف أكميز: الخليفة مولاي الحسن بن المهدي من خلال الصحافة الإسبانية، صحيفة أ ب ث ABC نموذجا، أعمال الندوة الدولية: الخليفة السلطاني في شمال المغرب وصحرائه الأمير مولاي الحسن بن المهدي، تطوان أيام 9 - 10 - 11 أكتوبر 2014م، منشورات مؤسسة الشهيد محمد بن عبود، تطوان 2016م، ص 202 - 203.

3 - الشهاب، جريدة أسبوعية حرة كانت تصدر صبيحة كل أحد، مديرها ورئيس تحريرها محمد العربي الشويخ.

4 - النهار، جريدة يومية مسائية باللغتين العربية والإسبانية، مديرها ومؤسسها محمد أو العيش بيصة.

5 - سطياف برنار: تاريخ الصراع الفرنسي-المغربي (1943 - 1956م)، ترجمة حسان المعروفي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014م، ص 174. / حسن الصفار: حزب الإصلاح الوطني 1936 - 1956م، دراسة تحليلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط 1، الرباط، 2006م، ص 187.

يُتابعون عن كثب، التطورات والأحداث المتسارعة في المنطقة السلطانية، والتوتر والصراع القائم بين القصر الملكي والإقامة العامة الفرنسية بالرباط، بسبب رفض السلطان محمد بن يوسف التوقيع على الظهائر والتشريعات التي تمس بالسيادة المغربية وحقوق الشعب المغربي، ورفضه المخطط الفرنسي الذي كان يروم إدماج المغرب في الاتحاد الفرنسي. وفي هذا السياق قام حزب الإصلاح الوطني - ابتداءً من شهر أبريل سنة 1953م - بحملة مكثفة، قصد فضح المؤامرة الاستعمارية الفرنسية وإحباطها⁶. وفي هذا الصدد تُعدُّ وثيقة تجديد بيعة شمال المغرب لجلالة الملك محمد الخامس يوم 15 شعبان 1372هـ الموافق لـ 29 أبريل سنة 1953م، أهم محطة في مسلسل التصدي للمؤامرة الفرنسية قبل تنفيذها، حيث جاء فيها: "وإننا نُصارحكم يا مولانا الإمام، بأن بيعتكم الشرعية لا زالت في سُويْدَاءِ القلوب محفوظة مَرَعِيَّة، لم تُبَلَّ حتى تحتاج إلى تجديد، ولم تُحْمَ حولها أفكار الزائفين حتى تتزعزَ أو تفتقر لتوطيد، ولكننا سمعنا جماعة، لم تذكر في غير ميادين الجور والشعودة والمكر، خافت على نفسها من وقوفكم مع الحق، الذي دام عندها مهضوما، ونصرتكم للشعب الذي عاش بيدها مظلوما، أن تندحر وتنكسر، فقامت تعتمد على الأجانب، وتراوغ مراوغة الثعالب، تدعي نيابتها عن الشعب، والله يعلم والأمة تشهد بأن هذا القول كاذب، بل لا تُنَوَّبُ إلا عن بطونها وجيوبها، تتآمر في الظلام، وتروم - لا بحق الله لها مَرَاماً - أن تفسخ بيعة من اتخذته الأمة بالإجماع إماما. وإننا نبرأ من عمل تلك الجماعة، ونُقِرُّ لأمير المؤمنين مولانا محمد الخامس بالسمع والطاعة، [...] ونُعلن لكم أن الأمة المغربية ترى فيكم بجميع شروط الإمامة الشرعية متوفرة، وتراكم قائمين بجميع ما تحملتكم به من أمانة كبرى ومسؤولية عظمى وفق الطاقة البشرية، وتُقَدَّرُ مكافحتكم في سبيل سعادة المغرب وحرية واستقلاله [...]"⁷.

بهذه الخطوة النضالية الاستباقية، أصبح كل ما تحبكه فرنسا بالجنوب ضدا على السلطان لا ينطبق انطباقا آليا على المنطقة الشمالية⁸. وفي يوم 17 غشت 1953م، أي قبيل ثلاثة أيام على تنفيذ المؤامرة، بعث زعيم حزب الإصلاح الوطني برسالة إلى الجنرال فرانكو، يطالبه فيها بتحديد موقف

6 - انظر البلاغات والمذكرات التي أصدرها حزب الإصلاح الوطني بدءا من يوم 2 أبريل 1953م وإلى غاية يوم 29 أبريل من السنة، عند: محمد ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد، مطبعة الساحل، الرباط، 1980م، ص 140 - 149. / محمد بن عزوز حكيم: موقف شمال المغرب من الاعتداء على العرش يوم 20 غشت 1953، مطابع الشويخ، تطوان، ج1، ص 125 - 168.

7 - محمد ابن عزوز حكيم: موقف شمال المغرب ...، ص 163 - 166.

8 - جان وولف: ملحمة عبد الخالق الطريس، حقيقة الحماية الفرنسية والإسبانية، تعريب الدكتور محمد الشريف، منشورات جمعية تطاون - أسمير، سلسلة ترجمات 3، تطاون، 2003م، ص 262. / حسن الصفار: حزب الإصلاح الوطني، ص 191 - 192.

إسبانيا من الأحداث الجارية، مُحاولا كسب عطفها على القضية المغربية، جاء فيها: "ونحن على يقين أن فخامتكم وحكومتكم المحترمة لن تقبلوا الأمر الواقع الذي تريد الحكومة الفرنسية أن تضعنا جميعا أمامه، ضاربة عرض الحائط إرادة هذا الجزء من الشعب المغربي بهذه المنطقة المشمولة بحماية إسبانيا، الذي صمم العزم على بقاءه وفيا للملك الشرعي، إننا متأكدون أن فخامتكم [...] ستعرفون كيف تُشرفونَ الدماء التي أسالها الشعب المغربي في سبيل القضية الوطنية الإسبانية"⁹. ولكن رغم كل هذه التحركات السياسية والدبلوماسية، فإن فرنسا لم تتراجع عن تنفيذ مؤامرتها الدنيئة، مُتحدية بذلك الإرادة الشعبية في المغرب من جهة، والمعاهدات والأوافق الدولية من جهة أخرى.

بعد تنفيذ المؤامرة، وعزل السلطان محمد الخامس، ونفيه إلى جزيرة كورسيكا يوم 20 غشت، توجه الأستاذ عبد الخالق الطريس مساء اليوم نفسه إلى الإقامة العامة الإسبانية، حيث أبلغ المقيم العام الإسباني الجنرال فالينيو، موقف حزبه الثابت من هذا الاعتداء، وقد استطاع -منذ أول لحظة- أن يحصل على ضمانات من فالينيو باتخاذ موقف الحياد من قضية الاعتداء على العرش، والسماح للحركة الوطنية بالمنطقة الخليفية بإعلان معارضتها لسياسة فرنسا والتمسك بملكها الشرعي محمد الخامس¹⁰.

وللتعبير عن استنكارها لهذه الجريمة النكراء، وبتأطير من حزب الإصلاح الوطني، قاطع سكان المنطقة الخليفية الاحتفال بعيد الأضحى المبارك، وقرر الخطباء الاستمرار في الدعاء للملك الشرعي للبلاد محمد الخامس على المنابر في خطب الجمعة¹¹.

2 - موقف الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي من المؤامرة الفرنسية:

لا مِرَاءَ في وَفَاءِ الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي لجلالة الملك محمد الخامس وإخلاصه له، وما ينهض دليلا على ذلك، موقفه الجريء والشجاع من المؤامرة الفرنسية، الذي تحدى فيه كل الضغوط والمضايقات التي كانت تسعى إلى التأثير عليه، وجعله يحيد عن طريق الحق.

9 - جان وولف: ملحمة عبد الخالق الطريس، ص 262 - 263.

10 - حسن الصفار: حزب الإصلاح الوطني، ص 192.

11 - حسناء محمد داود: على رأس الثمانين (مذكرات الأستاذ محمد داود)، منشورات جمعية تطاون - أسمير، تطوان 2011م، ص 237 - 238.

فجاء أول خطاب سياسي رسمي ألقاه بقصره بعد تنفيذ مؤامرة 20 غشت، جوابا على الكلمة التي ألقاها المقيم العام الإسباني فالينيو في حضرته بمناسبة التهئة بحلول عيد الأضحى المبارك، حيث عبّر الخليفة السلطاني عن شكره وامتنانه للدولة الإسبانية في شخص مُقيمها العام بتطوان الجنرال غرسيا فالينيو، على موقفها النبيل، الذي كان أصدق تعبير عن المواسة والمؤازرة للمغرب في هذه المحنة التي يجتازها، مُنبهاً إلى أن وقع هذا الخطب الجلل الذي ألمَّ بالمغرب، اهتزت له كل البلاد العربية والأمة الإسلامية، ومُشيدا بالتضحيات الجسيمة التي يُقدّمها جلالة الملك محمد الخامس في سبيل عزة البلاد وكرامة الشعب: "أني أقدر أسفكم وأسف حكومتكم الموقرة وشعبكم النبيل، على ما شاهدناه جميعا في الأيام الأخيرة من أعاصير اجتاحت المغرب كله، وحملت بين جوانحها أحداثا هائلة اهتز لها المغرب من أقصاه إلى أقصاه، وتردد صداها في كل بقعة يرتفع فيها صوت الحرية وترفرف في سمائها أعلام الحق والديمقراطية، فاستطاعت هذه الأعاصير أن تُنحّي -إلى حين- من عمّر الله قلبه بالإيمان، فَشَغَلَهُ عن عَرَضِ الدنيا وَمَبَاهِجِ الحياة، حتى أصبح رمزا حَيًّا للتضحية، ومثلا أعلى لِلْفِدَاءِ والثبات. وإذا كانت إسبانيا الصديقة -وأنتم خير من يمثلها في هذه البلاد- قد أظهرت في غير ما مناسبة إحساساتها الصادقة وعواطفها النبيلة من هذه الأحداث المؤلمة التي لم تنزل ضرباتها القوية بالمغرب وحده، بل نزلت بسائر بلاد العروبة والإسلام، فإن إسبانيا ما زالت تُقيّم البراهين كل يوم على أنها الوَفِيَّة لعهودها، الحافظة لكلماتها، المخلصة في وعودها، الساعية إلى تنفيذ مشروعاتها النافعة في هدوء، والتي سيعود تطبيقها بلا شك بالخير والبركة على شعبينا الصديقين المتأخيين. وإذا اشتهرتم يا صاحب المجادة بالمقدرة والكفاءة في الأوساط الحربية، فإنكم اليوم تقدمون الدليل القاطع على أن لكم باعا طويلا في الميدان السياسي، يُعينكم على التبصر بالأمر، ومُسايرة الأحداث، وفهمكم الصحيح للحالة الراهنة، وإحساسكم بالوعي القومي الذي يسود جميع الطبقات. فشكرا لكم على موقفكم الكريم الذي يظهر نبل شعبكم وعطف حكومتكم في هذا الظرف الدقيق الذي تجتازه البلاد"¹².

لقد استقبلت الحركة الوطنية في الشمال هذا الخطاب الصادر عن الخليفة مولاي الحسن بن المهدي، بارتياح كبير، حيث جاء في المذكرة التي وضعها الأستاذ عبد الخالق الطريس بتاريخ 25

12 - جريدة الشهاب، عدد 229، السنة الثامنة، 16 ذي الحجة 1372هـ / 27 غشت 1953م.

شتبر 1953م، حول وُجوب المناداة بسمو الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي وصيًا على عرش المغرب، ما يأتي: "عندما أعلنت السلطات الفرنسية خلع جلالة الملك محمد الخامس من العرش ونفيه إلى جزيرة كورسيكا، بادر سمو الخليفة في المنطقة الخليفية باستنكار ذلك العمل في خطاب ألقاه في قصره، وفُهِمَ - ضمناً - وقتئذ، أن سموه لا يوافق مطلقاً على هذا التصرف. فكان بذلك خير مُعَبِّرٍ عما يختلج في قلوب المغاربة جميعاً، ومما زاد ذلك تأكيداً أن المندوب السامي الإسباني أكد ما ذهب إليه سمو الخليفة، ثم ظهر عدم اعتراف سمو الخليفة وحكومة الحماية واضحاً، عندما ظل الخطباء في المساجد يخطبون باسم محمد الخامس إلى يومنا هذا"¹³.

ومع مرور الأيام والشهور، أصبح موقف الخليفة السلطاني أكثر جلاءً ووضوحاً، من خلال تصريحاته للصحافة ووسائل الإعلام، ومن ذلك؛ تصريحه لجريدة الأهرام المصرية الصادرة يوم 29 أكتوبر 1953م قائلاً: "إن المنطقة لا تزال تعترف بجلالة الملك محمد الخامس ملكاً شرعياً للمغرب الأقصى"، ثم أتبع ذلك، قائلاً: "إننا لن نسمح أبداً بتقسيم المغرب، ولا بفصل هذه المنطقة عن الأخرى، إن الحكومة الفرنسية لم تستوضح رأي باشوات هذه المنطقة ولا قوادها في العمل الذي أقدمت عليه، كما لم تستشر الحكومة الإسبانية فيما دبرته لخلع جلالة الملك. إننا في منطقتنا لا زلنا ندعو لمولانا محمد بن يوسف فوق منابر مساجدنا باعتباره سلطان المغرب الشرعي"¹⁴.

وجاء في تصريحات الأستاذ عبد الخالق الطريس إلى الأستاذ ألبير عمون، والتي نشرتها جريدة الأهرام المصرية وأذاعها راديو العرب، عندما سُئِلَ عن إمكانية تزعم الخليفة السلطاني - بالاتفاق مع إسبانيا - الحركة الوطنية في المغرب، فأجاب قائلاً: "مركز سموه الآن ممتاز ومرموق، وفي إمكان سموه أن يستغل هذا المركز لصالح القضية العامة، ولصالح الأسرة العلوية الكريمة، ولصالح محمد الخامس، الذي أبى الشرف على سموه أن يبايع سواه. إن سموه يعرف التأييد الذي يحظى به من مختلف طبقات الشعب فيما يتعلق بعدم الاعتراف، وهو تأييد يتعدى أهالي منطقتنا إلى أقصى جهات المغرب، كما يعرف سموه المعارضة التامة التي يشعر بها المواطنون نحو كل محاولة ترمي إلى فصل هذه المنطقة عن الوطن العزيز. فإذا تقدم سموه للقيام بالواجب في تمثيل العرش المغربي بكل

13 - محمد ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد، ص 147.

14 - جريدة الأمة، عدد 57، السنة الثانية، 30 أكتوبر 1953م، ص 1.

مقوماته، واستطاع أن يقنع الحكومة الإسبانية بوجهة نظره، فسيؤدي للمغرب وإسبانيا معا خدمة تبقى مَفْخَرَةً كبرى من مفاخر سموه.¹⁵

وجاء في الخطاب الذي ألقاه الأستاذ عبد الخالق الطريس بمناسبة عيد جلوس الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي يوم 8 نونبر 1953 م ما يأتي: "قد تَوَجَّ مولانا الخليفة المعظم أعماله الخالدة، بموقفه من المؤامرة الدنيئة الخسيسية التي اعتدي فيها على الملك الشرعي للبلاد سيدي محمد بن يوسف، فقد وقف موقف الوفاء من ملك المغرب الأوحده، ولو خلعوه أو نفوه أو سجنوه...".¹⁶

وتعليقا على هذا الموقف الجريء الذي وقفه الخليفة مولاي الحسن بن المهدي، جاهرا بالحق وبما يمليه عليه ضميره، يقول الأستاذ جان وولف: "كان الموقف الذي وقفه الخليفة السلطاني بخصوص هذه القضية المؤلمة، من أسمى المواقف، خصوصا وأنه كان يتعرض لضغوطات قوية، بقدر ما هي متباينة، وحتى متناقضة. لقد حفزه ضميره، ومجهودات الوطنيين، على التثبت بمسلكه. لكن من جهة أخرى، كان الوسطاء من ذوي النيات الحسنة (وأصحاب الأغراض، ولا شك) يوافونه برسائل سرية من عند سلطات الاحتلال، وحتى من القصر بمدير، تنبهه كلها على أن "من مصلحته الخاصة، ومصلحة المنطقة"، ألا يُهَدَّد مستقبله بتصرّجات غير موفقة عن وفائه للامشروط لأي كان. وفي ذات الوقت، كانت تصل سموه رسائل سرية من عند الكلاوي، وكانت تربطه به علاقة صداقة في السنوات الماضية، يذكره فيها بارتباطاته العائلية بآبن عرفة [...] ومن جهة أخرى كان الممثل الوفي للسلطان، يحس أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بقضية الملك الشرعي، لأن زوجته لم تكن سوى الأميرة للا فاطمة الزهراء، ابنة السلطان مولاي عبد العزيز، وكانت على ارتباط مستمر بنفسها بالأوساط الوطنية، وبمحمد الخامس. فمهما كان بريق الوعود التي يلوح بها، فإن الخليفة السلطاني لم يخلف قط واجبه حارسا للعرش في هذه المنطقة الشمالية".¹⁷

3- موقف إسبانيا من عزل السلطان محمد بن يوسف ونفيه من قبل فرنسا:

1-3- بداية تبلور الموقف السياسي الإسباني من مؤامرة 20 غشت 1953 م:

لِفَهْمِ حِيثِيَّات وظروف تشكل الموقف الإسباني من حادثة عزل السلطان محمد الخامس ونفيه من قبل فرنسا، لَبَدُّ من التذكير بأن العلاقات السياسية بين باريس ومدير لم تكن على ما يُرام،

15 - جريدة الأمة، عدد 58، السنة الثانية، 31 أكتوبر 1953 م، ص 4.

16 - محمد ابن عزوز حكيم: نضال الطريس في ساحة الوحدة، الرباط، 1980 م، ص 60.

17 - جان وولف: ملحمة عبد الخالق الطريس، ص 270 - 271.

خاصة بعد استيلاء الديكتاتور فرانكو على الحكم في إسبانيا، ووصول حكومة الجبهة الشعبية الاشتراكية إلى الحكم في فرنسا، ومما زاد في توسيع الهوة بين النظامين الإسباني والفرنسي، السياسة العربية أو الإسلامية التي نهجها الزعيم الإسباني، والتي كان من ثمارها التقارب الكبير بين إسبانيا والجامعة العربية، وبالتالي التعاطف الكبير الذي أظهرته إسبانيا اتجاه قضايا التحرير في الوطن العربي¹⁸. والتنافر نفسه هيمن على العلاقات بين تطوان والرباط، بسبب التفاوت الكبير فيما ترخر به منطقتا النفوذ الإسباني والفرنسي من ثروات اقتصادية، جعلت فرنسا تنظر بعين الاستخفاف إلى مركز إسبانيا في المغرب، وهذا ما نستخلصه من خطاب المقيم العام الإسباني الجنرال غرسيا فالينيو: "وقد لا تعدم من يرى باستخفاف أن إسبانيا لا تمثل إلا قدرا ضئيلا في الإمبراطورية المغربية، وأنا أقول لكل من يقع في هذا الخطأ، أنه وإن كان مركز النشاط المادي يوجد في منطقة النفوذ الفرنسي لأسباب لا يمكن تفصيلها الآن، فإن مركز النشاط السياسي والروحي يوجد في منطقة النفوذ الإسباني"¹⁹. ورغم ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن وتيرة تبلور موقف إسبانيا من حادثة 20 غشت كانت بطيئة، وتنبه عن الحذر الشديد والرغبة في عدم المجازفة بتصريحات متسارعة²⁰، إلا أننا نرى في هذا التريث والحذر من الجانب الإسباني، أن إسبانيا كانت تنتظر تشكّل رد الفعل الوطني المغربي على المؤامرة الفرنسية، والذي من شأنه أن يمنح الشرعية لإسبانيا للتدخل وإعلان موقفها بجرأة أكبر، وهذا ما عبّر عنه المقيم العام الإسباني في حوار مع العربي اللوه يوم 22 غشت من السنة، حيث قال: "إنني شخصيا تأملت كثيرا من هذا الاعتداء، وعلى الخصوص ما عومل به محمد الخامس الذي نُجِّلُهُ وَتُقَدَّرُهُ، ولا أشك أن إسبانيا تأملت كثيرا من هذا التصرف، وبالأخص الجنراليسمو فرانكو، وإنني اليوم لا يمكن أن أقول لك شيئا ما دمت لا أعلم الموقف الذي ستتخذه دولتي من هذه القضية، وإن كنت أجزم أنها إن وجدت استعدادا من المغاربة، فسوف لا تُقَصِّرُ في تأييدهم والأخذ بيدهم إلى نيل حقوقهم واستقلال بلادهم، وإرجاع ملكهم إلى عرشه"²¹.

18 - روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة ومراجعة أنيس فريجة، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1963م، ص 249.

19 - من خطاب التهئة بمناسبة عيد الأضحى المبارك، الذي ألقاه الجنرال غرسيا فالينيو في حضرة سمو الخليفة مولاي الحسن بن المهدي. انظر: أسبوعية الشهاب، عدد 229، بتاريخ 27 غشت 1953م.

20 - عبد الرحيم برادة: إسبانيا والمنطقة الشالية المغربية (1931 - 1956م)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007م، ج2، ص 298 - 300.

21 - العربي اللوه: المنهال في كفاح أبطال الشمال، تطوان، 2009م، ص 166.

وتَصَمَّنَ أول خطاب رسمي للمقيم العام الإسباني، انتقادا صريحا لفرنسا التي رَمَتْ عرض الحائط -بفعلتها هذه- كل المعاهدات والأوفاق الدولية المبرمة مع المغرب، وتجاهلت شريكتها في نظام الحماية إسبانيا، ولم تكلف نفسها عناء استشارتها والاستماع إلى رأيها، فقال بهذا الصدد: "إن إسبانيا المنفذة الآمنة لجميع تعهداتها المبرمة مع المغرب، لا يمكنها أن تنظر بغير اكتراث إلى الأحداث السياسية الجسيمة الواقعة في المنطقة المجاورة، ولا مفعولها الطبيعي في هذه المنطقة، خصوصا إذا علمنا أن واجب الجوار -بغض النظر عن المعاهدات- يقضي في الظاهر استشارات لم تحدث في وقت من الأوقات، في هذه المناسبة -على الأقل- وقع تجاهل وجودنا في هذه الأراضي في أوقات اعتبرها من الخطورة، بحيث يمكن أن تنالنا شرارتها، وهذا بالرغم من القول الفرنسي المشهور "نحن على ظهر سفينة واحدة"، إذ يجب أن نسير باتفاق في جميع أوجه التطور المغربي"²².

وقد أثار هذا التصريح، تعليقات وتحليلات الصحافة المغربية والإسبانية، التي استحسنت هذه الخطوة السياسية الجريئة من جانب إسبانيا، حيث عُلِّقَتْ أسبوعية الشَّهاب، قائلة: "فما كان المغاربة والعالم الإسلامي والعربي يطلعون على خطاب مجادة المندوب، حتى انقضت عنهم العُمة، وتَنَفَّسَ الكل الصُّعداء، وعدُّوا هذه الخطوة من إسبانيا، خطوة جريئة، وعملا إنسانيا جديرا بالتقدير والإعجاب [...]"، ومعنى هذا أن إسبانيا ساخطة ناقمة على السياسة الفرنسية في المغرب، وأنها غير مرتاحة للعدوان الذي وقع من فرنسا على جلالة الملك محمد الخامس، وإنها - أي إسبانيا - غير معترفة بأي تبديل أو تغيير في الجهاز الحكومي المغربي، يقع دون استشارة إسبانيا"²³. وفي مقال للكاتب إسبانيكوس، الصادر في جريدة مدريد يوم 15 شتنبر بعنوان "موقف إسبانيا من حوادث المغرب"، جاء فيه: "وبالإجمال فإن عمل فرنسا يُعَدُّ عملا طائشا، ويمتزج هذا الطيش بقلّة تقدير الشعب المغربي، لعدم البحث عن وسائل التقدم الذي له الحق في أن ينتظره من الدولة الحامية، كما يمتزج بنسيان أبسط أصول الجوار مع دولة هي إسبانيا التي تحكم - داخل نظام الحماية نفسه - أناسا ينتمون إلى نفس ذلك الشعب، وقد كشفت الحوادث الأخيرة عن كل ذلك بوضوح تام، وأن خلع السلطان دون استشارة الشعب المغربي ولا حتى كل قواد الحماية الفرنسية، ومن غير استشارة إسبانيا، ولا الأمير الذي يتولى أمور المنطقة بسلطة تفويضية من السلطان، ولا القواد ولا الشعب المغربي الذي تضمه هذه المنطقة، يدل، أولا على أن الدولة الفرنسية خرقت خرقا صريحا لفظ روح

22 - أسبوعية الشَّهاب، عدد 229، بتاريخ 27 غشت 1953م.

23 - أسبوعية الشَّهاب، عدد 230، بتاريخ 6 شتنبر 1953م.

المعاهدات [...] نرى أن الحقيقة هي أن السلطات الفرنسية تركت المؤامرة ضد سلطته تنشأ وتنمو، وأدهى من ذلك، أن المقيم الفرنسي نفسه "الذي كان عليه أن يدافع عنه ويعمل على احترامه، كان هو الذي خلعه وصيّره أسيراً"²⁴. ويضيف قائلاً: "إن موقف إسبانيا ضد ذلك كله، هو موقف نُفُورٍ صريح، وأن الوجود الفرنسي في المغرب، الذي لا يركز قيامه والاحتفاظ به على أدنى مُبرر، يمكن أن يكون لو استمر في طريقه هذا - كما كان في مناسبات أخرى - بمثابة بؤرة الشقاق ومنطقة خطر على السلم. إن الشعب المغربي يستحق احتراماً أكبر مما توليه الدولة الفرنسية، وليس لدولة غير إسبانيا التي يهملها مباشرة أمر السلم في المغرب، أن تصف عمل فرنسا بما يستحق في تلك البلاد، وأن تعطي إشارة الخطر إزاء الأخطار التي ينطوي عليها هذا العمل بالنسبة لسلم العالم"²⁵.

3-2- موقف الإقامة العامة الإسبانية بتطوان:

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن الإقامة العامة الإسبانية بتطوان، بادرت إلى استنكار الجريمة الفرنسية في حق الملك الشرعي للمغرب محمد الخامس، ووجَّهت سهام نُقْدِهَا للحكومة الفرنسية وسياستها الخاطئة المتبعة في منطقة نفوذها، وذلك على لسان المقيم العام الإسباني غرسيا فالينيو في خطاب التهئة بمناسبة عيد الأضحى. إلا أن الموقف الإسباني بدا أكثر وضوحاً، وغير قابل للتأويل، في الخطاب الذي ألقاه المقيم العام الإسباني فالينيو يوم 21 يناير 1954م في ميدان "لايبكا"، حيث احتشد حوالي 25000 مغربي، إلى جانب أعضاء الحكومة الخليفة، قصد شكر إسبانيا، والتعبير عن الأخوة الإسبانية - المغربية، وتقديم الوثيقة التاريخية الموقعة من قبل 430 من رجال السلطة المخزنية وممثلي الهيئات القضائية والإدارية والطرق الدينية والأشراف والأعيان والتجار، إلى المقيم العام الإسباني ليسلمها بدوره للرئيس الإسباني الجنرال فرانكو. ومما جاء في هذا الخطاب: "وفي سنة 1953م أحرق الخطر ببلاذكم، والأيام التي عشتموها والحوادث التي مرت بكم مازالت قريبة، بحيث أننا ما زلنا نلمسها بأيدينا، وذلك يُغْنِينِي عن أن أستعرضها مُفَصَّلَةً، وإنما أقول لكم إنه وإن كانت قد سبقتها مقدمات في السنوات السالفة، فقد تكللت بحادث تاريخي لا يعرف حتى الآن مدى نتائجه بالنسبة إلى شعبكم الأبي، فإن فرنسا الدولة المشاركة لإسبانيا في حماية المملكة المغربية، وقد ضربت عرض الحائط بما تعهدت به المعاهدات من مساعدة وتَعْضِيدِ سلطة الملك الشرعي الذي بايعه الشعب المغربي، ظنت أنها وجدت مخرجاً من المأزق الذي رَجَّتْهَا فيه أخطاؤها

24 - اعتمدنا على الترجمة العربية للمقال المنشورة في أسبوعية الشهاب، عدد 233، السنة 8، بتاريخ 27 شتنبر 1953م.

25 - نفسه.

السياسية بإقصائه عن العرش بصورة عنيفة، مُستندة على طلب أعدته هي نفسها، وقدمه بعض رجال السلطات الحكومية والشرعية في منطقة حمايتها، وقد عمّرت صدور بعضهم بالأحقاد، وعجز القسم الأوفر عن الإدراك ما يقوم به. وهي بعملها هذا قد خطت خطوة يمكن القول دون مبالغة بأنها لا علاج لها، وعليها أن تواجه الآن وحدها ما تجره من مسؤولية، إنها لم تطلب قط رأينا ولا نصيحتنا، وإذ لو فعلت لأجبنها بالاستنكار التام القاطع. ولكن للأسف طغى الكبرياء على العقل، وإنه يقال أن الكبرياء يعمي الرجال ويؤدي بهم إلى التهلكة. ومن الطبيعي أن ترفع إسبانيا صوتها عاليا في مثل هذه الظروف، لتعرب عن الاستنكار التام لهذه الحوادث التي وقعت بدون مشورتها ودون رأيها، الذي يستند على حقيقة سلم واقعي وتفاهم راهن، يسودان والله الحمد المنطقة التي نباشر فيها واجبات حمايتها²⁶. وحمل المندوب العام الإسباني فرنسا مسؤولية تقويض الأمن والسلم ونشر الفوضى في المغرب، قائلا: "فالقسم الأكبر من المغرب غارق الآن في غمار القتال وفي تدابير القمع القاسية، التي تلطخ بالدم جميع المنازل المغربية بصرف النظر عن الحدود، كما هو طبيعي في دولة واحدة لا تتجزأ حسبها أعلنت عن ذلك إسبانيا مرارا"²⁷. كما ردّ على الاتهامات الفرنسية وحملاتها المغرضة ضد إسبانيا بقوله: "ولقد أشاع ذوو المآرب رغبة، منهم في مسخ هذه المبادرة النبيلة من جانب إسبانيا أمام آلامكم، أنها حركة مُغرضة انتهازية ترمي إلى نيل مُنافٍ في وضعها المغربي، وأنها لا تمثل رأي المغاربة ولا ذارات سلطاتهم العليا، لكن خير دليل على فساد هذه الإشاعات، هي هذه الوثيقة التي تحمل 430 توقيعاً من جميع سلطات المنطقة التي تمثلونها خير تمثيل في هذا الحفل الكريم، الذي احتشدتم فيه إلى جانب أميركم المحبوب سمو الخليفة المعظم، لتعبروا لي عن ولائكم لإسبانيا وعن أمانيتكم، وهذا أفصح وأكمل تكذيب لمثل هذه الحملات السياسية المغرضة. وأن الأمن الحاضر الذي تتمتع به هذه المنطقة رغم كل ما جرى مقابل ما يسود المنطقة المجاورة من قلق وهلع، لأفصح برهان أمام العالم أجمع على سلسلة من الأخطاء الفادحة التي حاكتها يد فرنسا مغفلة"²⁸.

26 - جريدة الأمة، عدد 127، الجمعة 17 جمادى الأولى 1373هـ / 22 يناير 1954؛ أسبوعية الشهاب، عدد 249، السنة التاسعة، 19 جمادى الأولى 1373هـ / 24 يناير 1954 م.

- Diario de Africa, Año 10, N°2531, Tetuan, 22 Enero 1954.

27 - نفسه.

-Ibid.

28 - نفسه.

-Ibid.

وتضمنت الوثيقة التاريخية، استنكار ممثلي المنطقة الخليفة للمؤامرة الفرنسية التي أدت إلى إبعاد الملك محمد الخامس عن عرشه، وعدم الاعتراف بالسلطان الذي نصبته فرنسا محمد بن عرفة، كما طالب الموقعون إسبانيا بالعمل على فصل المنطقة الخليفة - مؤقتا - عن المنطقة السلطانية، وجعلها خاضعة لسيادة الخليفة مولاي الحسن بن المهدي. وهذا بعض ما جاء في الوثيقة:

"أولا- نستنكر كل الاستنكار، وبلا هوادة، السياسة المتبعة في المنطقة الفرنسية، والأساليب التي أدت إلى إبعاد الملك الشرعي سيدي محمد بن يوسف عن عرشه من جراء المؤامرات التي دبرتها المقيمة العامة الفرنسية بالاتفاق مع عناصر أهلية موالية خفية عن كافة طبقات الشعب المغربي، هازئة برأيه وعواطفه، ضاربة عرض الحائط بالمعاهدات التي أقرت الحماية.

ثانيا- نُعَبِّرُ عن تأييدنا المطلق، وشكرنا وشكر الشعب المغربي على بكرة أبيه، للسياسة المتبعة في منطقة حماية إسبانيا، والتي يشرف عليها مجادتك من على منصبه الرفيع كمفوض سام.

وعملا بهذا التأييد، نُعَرِّبُ لكم أننا لا نعترف بسلطان مولاي محمد بن عرفة، لأن فرنسا هي التي فرضته على الشعب المغربي من غير تقدير لعواطفه، وإننا نقدم خضوعنا وطاعتنا لأمرنا المحبوب مولانا الحسن بن المهدي بن إسماعيل. وإننا تأييدا للفكرة الأساسية التي طالما دافعت عنها إسبانيا، وهي فكرة الوحدة، وحدة المملكة المغربية، نطالب بفصل المنطقة الخليفة - مؤقتا - ما لم تبدل الأوضاع السياسية الراهنة، عن المنطقة الفرنسية، وبأن يكون صاحب السمو الخليفة مُطْلَقُ السيادة في هذه المنطقة، مستقلا تمام الاستقلال عن مولاي عرفة"²⁹.

وأثناء المهرجان، أبرق المقيم العام الإسباني فالينيو إلى الزعيم فرانكو، يخبره بالنجاح السياسي الكبير الذي حققه هذا الاحتفال، وبفحوى الوثيقة التي رفعها ممثلوا السلطات المخزنية والهيئات الدينية وغيرهم في المنطقة الخليفة إليه، والتي يطالبونه فيها بالتدخل، والعمل على فصل المنطقة الخليفة، وإسناد إدارتها مباشرة للخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي³⁰. فجاء جواب الجنرال

29 - جريدة الأمة، عدد 127، السنة الثانية، بتاريخ الجمعة 17 جمادى الأولى 1373هـ/ 22 يناير 1954م؛ أسبوعية الشهاب، عدد 249، السنة التاسعة، بتاريخ 19 جمادى الأولى 1373هـ/ 24 يناير 1954؛ جريدة النهار، عدد 756، السنة السابعة، 17 جمادى الأولى 1373هـ.

-Diario de Africa, Año 10, N°253, Tetuan, 22 Enero 1954, p 6. Documento Historico con 430 firma.

30 - انظر تعريب نص هذه البرقية في: جريدة الأمة، عدد 128، السنة الثانية، بتاريخ 18 جمادى الأولى 1373هـ/ 23 يناير 1954م.

فرانكو سريعا: "بكل ارتياح وابتهاج تلقيت تلغرافكم الذي تعلمونني فيه بالمهرجان العظيم المؤثر المعقود في تطوان، والذي أعربت فيه الحكومة الخليفية والقواد والسلطات الشرعية والطرق الدينية والشرفاء والعلماء والأعيان، عن ولائهم، وعن أحاسيس الشعب المغربي الذي نحن موحدون معه في السراء والضراء. وإن هذا التجاوب العميق بين أمتين في يوم مشهود، لباعث على السرور الحقيقي لنا معشر الذين وهبنا حياتنا وحرصنا على إعانة الشعب المغربي في طريق نهضته ورفاهيته. ليمطر الله السلام على ذلك الشعب وسلطاته المثلى، وكذلك الابتهاج والبركات التي نتمناها له من كل قلوبنا. الخنراليسمو فرنكو"³¹.

لقد كان لمهرجان تطوان أصداء قوية محليا ودوليا، كما يتضح ذلك من خلال تصريحات الجنرال فالينيو للصحافة الإسبانية، والتي أشاد فيها بالقيمة السياسية الكبيرة لهذه المحطة التاريخية قائلا: "هذا الاحتفال معناه هو أن شعبا محميا يريد أن يبدي شكره وثقته للبلاد الحامية. أما القيمة السياسية لتلك الوثيقة بالنسبة لإسبانيا، فهي إعطاء الأسس للحكومة الإسبانية حتى تستطيع أن تدافع عن حماية -لها بالنسبة لإسبانيا- نفس الحقوق والواجبات التي للحماية الفرنسية"³². وردّ على تعليقات الصحافة الفرنسية قائلا: "إن فرنسا مُقتنعة لا حق لها، وهي تعلم جيدا أنها ارتكبت أخطاء كخلع السلطان محمد الخامس، وهذه الأخطاء عويصة إن لم نقل من المستحيل تصحيحها، وليست تعليقات الحكومة الفرنسية وصحافتها إلا رد فعل عنيف، يحاولون من ورائه جعلنا نَعْدِلُ عن موقف ثابت أظهرناه، زيادة على ذلك إنه الموقف الحق العادل"³³. وعن اتهام إسبانيا بتمزيق الوحدة السياسية للمملكة الشريفة، أجاب قائلا: "إن طلب السلطات المغربية الانفصال عن منطقة الاحتلال الفرنسي، لا يتضمن -بحال من الأحوال- تمزيق تلك الوحدة السياسية للمملكة الشريفة، بل رغبة المغاربة الاجتماعية في الابتعاد عن جو الهيجان والإرهاب، الذي هو الشيء الوحيد الذي يمكنهم أن ينتظروه من فرنسا، وعندما تتبدل هذه الحالة من الفوضى، هناك فقط تعود المملكة المغربية إلى وحدتها، وهو ما أرادته إسبانيا دائما". وعن القرار الذي ستتخذه الحكومة

31 - نفسه.

32 - من تصريح الجنرال غرسيا فالينيو للمعوث الخاص لجريدة ABC الإسبانية يوم 23 يناير 1954 م. أنظر: -ABC, N° 14941, Año Cuadragésimo séptimo, 25 Enero de 1954.

- جريدة النهار، عدد 758، السنة السابعة، بتاريخ 20 جمادى الأولى 1373هـ.

33 - نفسه.

الإسبانية بشأن الوثيقة المغربية، قال: "إن مطالب القواد والسلطات لها صبغة محددة، فمعناها من جهة تأكيد سياسة متبعة في المغرب الإسباني منذ خلع السلطان، وهي تعني من جهة أخرى المطالبة بالسيادة التامة لخليفة المنطقة الذي يستقل قانونيا، كما هو بالفعل عن سلطة مزعومة لسلطان مفروض من الفرنسيين، فهذا الوجه الذي لا أنكر أهميته، هو ما على حكومتنا أن تدرسه وتبث فيه". وفي تصريح آخر لمبعوث وكالة ثيفرا الخاص، قال الجنرال فالينيو بشأن المطالب التي قدمتها السلطات المخزنية: "أعتقد بكل صراحة أنه يتعين تلبية المطالب التي وجهتها السلطات المخزنية والشرعية إلى إسبانيا، فقسّم من تلك المطالب يتعلق بأعمال تتكرر منذ عزل السلطان محمد الخامس. فلسنا بحاجة إلى الإلحاح في هذا الشأن. أما المطالب الجديدة فهي فصل المنطقة الإسبانية عن الفرنسية، والسيادة المطلقة للخليفة صاحب السمو مولاي الحسن كأمر لهذه المنطقة له نفس الحقوق والواجبات التي للمنطقة الفرنسية. هاتان هما المسألتان اللتان يجب أن يفصل بشأنهما سعادة رئيس الدولة، الذي سيستلم من يدي المقيم العام الوثيقة الممضاة من جانب سلطات المنطقة الإسبانية. ومعنى هذا بكل وضوح ضرورة عقد مؤتمر تراجع فيه معاهدة الجزيرة الخضراء، التي ستعتبر آنذاك ملغية، لأن فرنسا أتت عملها بمفردها في أغسطس 1953"³⁴.

3-3- موقف زعيم إسبانيا الجنرال فرانكو:

على الرغم من أن موقف رئيس الدولة الإسبانية وزعيمها الخنراليسمو فرانكو، بدا جليا من خلال الخطب السياسية التي ألقاها المقيم العام الإسباني الجنرال فالينيو في مناسبات عدة؛ كالتهنئة بعيد الأضحى يوم 25 غشت 1953م، أو في مهرجان تطوان الكبير يوم 21 يناير 1954م، وكذلك من خلال التصريحات التي أدلى بها للصحافة الإسبانية، والتي كُلفتها كانت تستنكر الفعلة الفرنسية، وتُعَلِّنُ تأييدها اللامشروط للمُعارضة الوطنية المغربية للسياسة الفرنسية. فالمقيم العام الإسباني لم يكن ليخطو أية خطوة من تلقاء نفسه، بل كان على اتصال وتشاور دائمين بالزعيم فرانكو، كما صرح هو بذلك بنفسه، ردًا على الادعاءات الفرنسية، التي كانت تسير في اتجاه أن موقف المقيم العام من النزاع الفرنسي- المغربي، لا ينسجم مع موقف حكومة مدريد، حيث أجاب قائلا: "لقد كانت تلك الدوائر مخطئة في تلك الثقة، إذ حيث أن العمل كان من الأهمية بمكان، لم أكن أستطيع أن أخطو بشأنه أية خطوة من تلقاء نفسي. إن عملي في الإقامة العامة ينحصر في إنجاز الجزئيات، ولست

34 - جريدة الأمة عدد 129، السنة الثانية، بتاريخ 20 جمادى الأولى 1373هـ/ 25 يناير 1954م.

مستعداً أن أقوم بأي عمل من هذا القبيل على جانب كبير من الأهمية، دون سابق الحصول على تأييد من رئيس الدولة الخنرايسمو فرانكو"³⁵.

إن خطاب الزعيم الإسباني في قصر البارودو بمدريد يوم 9 فبراير 1954 م - حيث استقبل الوفد المغربي الممثل للمنطقة الخليفية، يتقدمهم الصدر الأعظم أحمد الحداد - يكشف - دونها حاجة إلى تأويل - عن الموقف الصريح والواضح للحكومة الإسبانية من الأزمة المغربية - الفرنسية، ومصادق ذلك قوله: "إن حقوق الشعب المغربي وشخصيته وحرياته، قد ضمنتها الأوفاق الدولية، والشهامة، وشرف الدولتين الحاميتين. وقد كان وجود فرنسا وإسبانيا في منطقتيهما ضماناً لذلك. لذلك نحن لا نستغرب عندما نرى أن الأسس السياسية للحماية قد مُرِّقَتْ نتيجة للتصرفات الغاشمة التي قام بها الفرنسيون. أن ترفعوا إلينا أكم واحتجاجكم، لأنه إذا استمرت أعمال العنف المذكورة، فإن القسم الأعظم من الشعب المغربي سيبقى خلوًا من الرعاية لظلم الدولة الحامية"³⁶. ثم أضاف قائلاً: "أما من جانبي، فأؤكد لكم أن إسبانيا ستبقى مُخْلِصَةً للاتفاقيات، وَفِيَّةً لإخوانها المغاربة، إنها ستدافع بحماية عن وحدة المغرب، ونص الأوفاق وروحها، دون أن تقبل الأمور التي تتعارض مع إحساننا، ومع الخلق الدولي، ونص الاتفاقيات المبرمة وروحها. ونحن على يقين بأن قوة الحق ستنتصر في النهاية على خطر القوة. وإلى أن تحين تلك الساعة، فإن المنطقة الموكولة إلى حمايتنا، ستبقى تحت سيادة صاحب السمو الإمبراطوري الأمير مولاي الحسن بن المهدي حماه الله ووفقه، بمؤازرة المقيم العام وسلطات المخزن وباشاوات وقواد المنطقة، وذلك بالمحافظة على الروح الحقيقية للحماية، والإخلاص لوحدة الإمبراطورية وشعور الشعب المغربي"³⁷.

وفي كلمته أمام زعيم إسبانيا، عَبَّرَ الصدر الأعظم في الحكومة الخليفية السيد أحمد الحداد، عن شكر الشعب المغربي وامتنانه لإسبانيا على موقفها النبيل من حادثة الاعتداء على عرش المغرب، وثقة المغاربة في الحكومة الإسبانية في سعيها إلى الحفاظ على وحدة المغرب بقيادة سلطانه الشرعي محمد الخامس: "يا صاحب الفخامة، إننا في يوم 21 يناير الماضي، الذي هو يوم تاريخي جليل بالنسبة

35 - جريدة الشهاب، عدد 253، السنة التاسعة، بتاريخ 17 جمادى الثانية 1373هـ / 21 فبراير 1954م.

36 - جريدة الأمة، عدد 143، السنة الثانية، 6 جمادى الثانية 1373هـ / 10 فبراير 1954؛ جريدة الشهاب، عدد 252، السنة التاسعة، بتاريخ 10 جمادى الثانية 1373هـ / 14 فبراير 1954م.

37 - نفسه.

للمغرب، قُمنّا في تطوان بتسليم الوثيقة التي تُقدمها لكم اليوم، إلى مجادة المقيم العام الطنّيني خنرال غرسيا فالينيو مثلكم، الذي عرف كيف يعبر عن أحسن إحساساتنا باسم إسبانيا في تلك الوثيقة، التي تعبر عن رغبة السلطات والأعيان والرجال البارزين في منطقتنا فيما يخص الحالة التي يجتازها المغرب. واليوم برفقة مجادة المقيم العام نريد -نحن مغاربة منطقة الحماية- أن نعبر بأنفسنا لفخامتكم عن شكرنا وإيماننا الكامل بشخصيتنا، ورغبتنا في أن نرى المغرب موحدا، مُلتفا حول سلطانه الشرعي، حُرّا من كل ضغط وإرهاب، يسير في الطريق الذي يُوصله إلى رفايته وعظمته [...] ³⁸.

4- العلاقات الإسبانية - الفرنسية بعد مؤامرة 20 غشت 1953م:

بديهي أن تعمّد باريس -بعد المواقف الإسبانية المؤيدة للمغرب والمتعاطفة معه في محتته- إلى الاحتجاج على مدريد، وإطلاق العنان للصحافة الفرنسية سواء الصادرة منها في فرنسا أو تلك الصادرة في منطقة الحماية الفرنسية بالمغرب، لشنّ هجماتها، والقيام بحملاتها العدائية المغرضة ضد إسبانيا والإقامة العامة الإسبانية بتطوان. فمباشرة بعد تظاهرة تطوان الحاشدة يوم 21 يناير 1954م، وجّهت الحكومة الفرنسية مذكرة احتجاجية سلّمها السفير الفرنسي في مدريد لوزارة الخارجية الإسبانية، عبّرت فيها عن اندهاشها واستغرابها من تصريحات المقيم العام الإسباني الجنرال غرسيا فالينيو المتعلقة بالمنطقة الفرنسية من المغرب ³⁹. فكان الردّ الإسباني يوم 5 فبراير، أكثر استفزازا لفرنسا، حيث جاء فيه: "إن وزارة الخارجية لها الشرف أن تجيب عن مذكرة الحكومة الفرنسية المؤرخة في 22 يناير بالمظاهرة الشعبية التي وقعت في تطوان في اليوم الذي قبله، وردا عليها، تتشرف وزارة الخارجية بأن تبلغ السفارة الفرنسية بأن العمل الذي أشارت إليه في مذكرتها، يُعدّ عملا يخص سياسة المنطقة الداخلية، وهو تعبير شعبي عن عواطف سكانها" ⁴⁰. لتبدأ الصحف الفرنسية في شن حملتها العدائية المسعورة ضد إسبانيا والمغرب، حيث نقرأ في مقال "أليكس ديلبيرو"، الذي نشرته جريدة ماروك بريس يوم 24 يناير 1954م، بعنوان "انقلاب تطوان لعب خطر بالنسبة لإسبانيا

38 - جريدة الشهاب، عدد 252، السنة التاسعة، بتاريخ 10 جمادى الثانية 1373هـ / 14 فبراير 1954م.

39 - جريدة الأمة، عدد 146، السنة الثانية، بتاريخ 9 جمادى الثانية 1373هـ / 13 فبراير 1954م؛ جريدة الشهاب، عدد 253، بتاريخ 17 جمادى الثانية 1373هـ / 21 فبراير 1954م.

40 - نفسه.

الفرنكية": "وإذا كان الجنرال فرانكو قد رأى الوقت قد أضحى مناسباً لينصب نفسه حامياً لللهلال، فمن هو الذي يقدم الآن على الجواب عليه؟ ألم يبعث هو أخيراً بأحد جنرالاته (وهو من أصل مسلم) في جولة رسمية إلى البلاد الإسلامية حيث استقبل فيها بكل بهرجة من جانب رؤساء الدول العربية؟ وليكن ما يكون فإن "الكارديو" ليلعب الآن لعبة خطيرة جداً عندما يؤيد انفصال خليفة تطوان وخروجه على السلطة الشرعية لصاحب الجلالة سلطان المغرب، وذلك اللعب صبيحة مؤتمر برلين سيدفع بالروسين ضد إسبانيا الفرنسية واتحادهم مع قضية فرنسا. ويظهر أن مدريد نسيت أن إنجلترا في هذا الوقت مجروحة من السبّة التي وجهتها إسبانيا إلى الملكة إليزابيث [...] إن رئيس إسبانيا يجب أن يعلم أن فرنسا ما كانت تحتاج إليه ليأتي لإسعافها. وإذا كانت وثيقة تطوان تحدث قلقاً، فمن الصائب أن تتقدم وزارة الخارجية الفرنسية في برلين بمطالبة مراجعة نظام طنجة لكي يقضي على النفوذ الإسباني في الحياة الدولية.⁴¹

ونشرت جريدة لوموند الباريسية تعليقا على خطاب الزعيم الإسباني الجنرال فرانكو أمام الوفد المغربي، بعنوان: "ماذا يريد الجنرال فرانكو؟"⁴²، مُعتبرة جوابه على مطلب الوفد المغربي، يشمل عبارات متناقضة: "إسبانيا ستدافع بكل عزم عن وحدة المغرب، وكذلك نص الأوفاق وروحها"، إلا أن الجنرال فرانكو يترك للجنرال غرسيا فالينيو مهمة التلميح إلى ما يعتبره "الملك الشرعي"، فهو يؤكد أن المنطقة الإسبانية "ستبقى تحت سيادة" الخليفة. ومعنى هذا نسيان "نص الأوفاق"، التي تحدد أن الخليفة ليس هو السيد وإنما هو نائب صاحب السيادة، ذلك هو تلميح وتطعيم تحويل حالة الأمر الواقع إلى حالة قانونية؛ بل ذلك هو إتيان الاعتداء على تلك الوحدة التي يؤكدون أنهم يريدون الدفاع عنها. وتلك المناقضات تظهرنا - وبعض المطلعين على أسرار سياسة النظام الإسباني لا يعملون على إخفاء ذلك - على أن فرانكو إما أنه أخطأ الطريق وإما أنه تعين عليه التعهد والالتزام. فالمبدأ الواضح الوحيد لعمله هذا، أنه لا يريد خلق حالة تضعف موقف إسبانيا في المغرب، ما دام لا يود التخلي بحال عن موقف إسبانيا في البحر الأبيض المتوسط. والبيان الصادر أمس - حيث كل واحد يستطيع العثور على ما يؤكد تلك الرغائب - يهدف إلى تغذية بعض الآمال العربية التي ستكون إسبانيا نفسها أول من يفسدها"⁴³.

41 - جريدة الأمة، عدد 132، بتاريخ 23 جمادى 1373 هـ / 28 يناير 1954 م.

42 - انظر تعريب المقال في جريدة الأمة، العدد 144، السنة الثانية، بتاريخ 7 جمادى الثانية 1373 هـ / 11 فبراير 1954 م.

43 - نفسه.

ثم يُعَدُّ صاحب المقال - بنوع من المنّ - الخدمات الجليلة التي قدمتها فرنسا لإسبانيا السنة الفارطة، من قبيل "دخولها في منظمة اليونسكو والمنظمة الفلاحية الأوروبية ونظام طنجة الجديد [...]". وردا على هذه الحملة العدائية الفرنسية ضد إسبانيا، صرّح المقيم العام الإسباني فالينيو لمبعوث وكالة ثيفرا يوم 25 يناير 1954م، قائلا: "إن السلطات الفرنسية تعلم أن المغاربة قد أهينوا، وأن عملها بالمغرب كان عملا طائشا. وقد عبرت عن هذا الصحافة الفرنسية، أما الغضب فهو مصطنع ولا يقوم على أسس متينة، لأنه لا يوجد أحد يجهل أن ادعاءات الحكومة الفرنسية بخصوص وحدة الإمبراطورية وسيادة السلطان وغيرهما ما هما إلا تمويه"⁴⁴.

نستنتج من خلال هذه الاتهامات المتبادلة، والتصريحات، والتصريحات المضادة، أن العلاقات الدبلوماسية الإسبانية - الفرنسية، قد دخلت بعد حادثة 20 غشت 1953م، في أزمة حقيقية، لن تعرف انفراجا إلا بعد عودة الملك الشرعي محمد الخامس إلى عرشه وحصول المغرب على الاستقلال.

خلاصة:

لا نزعم -بعد هذه المحاولة- أننا أحطنا بتفاصيل وحيثيات الموقف الإسباني من مؤامرة الاعتداء على العرش التي دبرتها ونفذتها الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب يوم 20 غشت 1953م، فهذه الإشكالية التاريخية ما زالت في حاجة إلى تعميق البحث والدراسة لسبر أغوارها، ولكن حاولنا - قدر المستطاع - تسليط الضوء على فترة هامة من تاريخ الحماية، مرّ فيها المغرب بظروف عصيبة، لم تزده إلا إيمانا و يقينا بالنصر وتحقيق مُبتغاه، بعودة ملكه الشرعي محمد الخامس إلى عرشه، وانتزاع الاستقلال. أما فيما يخص الموقف الإسباني، فيمكن إبداء الملاحظات والاستنتاجات الآتية:

- إن حقيقة الموقف الإسباني من مؤامرة 20 غشت 1953م، يتجاوز ردّة الفعل على الإحساس بالإهانة، بسبب تجاهل وعدم استشارة السلطات الفرنسية لإسبانيا قبل إقدامها على تنفيذ مخططاتها بعزل السلطان محمد الخامس ونفيه، كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين⁴⁵.

44 - جريدة الأمة، عدد 129، السنة الثانية، بتاريخ 20 جمادى الأولى 1373هـ/ 25 يناير 1954م.

45 - عبد الرحيم برادة: إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية، ج2، ص 299.

- إن الموقف الإسباني تَشَكَّلَ بصورة تدريجية، في انسجام مع "الحراك الشعبي"، الذي ظل متشبثا بمكمله الشرعي والأوحد محمد الخامس.
- إن الموقف الإسباني تأثر كثيرا بالمعارضة القوية التي تزعمتها الحركة الوطنية في الشمال، منذ انكشاف المؤامرة الفرنسية ضد الملك الشرعي، وخاصة التحركات السياسية والدبلوماسية التي قام بها حزب الإصلاح الوطني بزعامة الأستاذ عبد الخالق الطريس.
- إن موقف إسبانيا، تأثر كثيرا بموقف الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي، الذي عَبَّرَ عن وفائه وإخلاصه للملك محمد الخامس، مُتَحِدِيَا كل الضغوط التي كانت تمارس عليه.
- إن موقف إسبانيا لم يُثَبِّتْ من فراغ، بل يندرج ضمن السياسة العربية للنظام الإسباني بزعامة الجنرال فرانكو، الذي كان يسعى إلى التقارب مع الجامعة العربية.

قراءة في كتاب: مذكرات مؤسس وقائد محارب في صفوف جيش التحرير لمحررها: عبد العزيز أقضاض الدوائري (إعداد وتقديم: محمد لخواجة)

ذ. أحمد الأزمي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرار

شعبة التاريخ - فاس

قبل الشروع في بسط القول عن بعض مضامين مذكرات هذا الكتاب أود في البداية، أن أقول كلمة وجيزة في حق صاحب الفضل في ظهور هذا التأليف، ويتعلق الأمر بالأستاذ محمد لخواجة، الذي بذل جهدا مشكورا وعملا مبرورا، بتنفيذه لوصية صاحب المذكرات مؤسس وقائد جيش التحرير المشمول برحمة الله المجاهد من أجل تحرير وطنه، عبد العزيز أقضاض. وفي هذا الصدد يقول الأستاذ محمد لخواجة "كان نشر هذه المذكرات والتقديم لها شرفا لي وتكليفا في نفس الوقت، لقد أوصى صاحبها ابنه البارين سي عمر وسي محمد، بأن أتولى هذه المهمة النبيلة، بعد أن فرغ من كتابتها، وإن تأخر نشرها فذاك راجع لبعض العوائق تم التغلب عليها أخيرا. وأعتقد أن ظهورها الآن (2008م) صادف بعض الفراغ الواجب ملؤه، لأن كلاما كثيرا قرأناه عن جيش التحرير، ورد في مذكرات عديدة صدرت بعد وفاة سي عبد العزيز، فيه قدر غير قليل من التجني على الحركة المسلحة التي خاضها جيش التحرير. وتأتي هذه المذكرات لتملأ الثغرات أو شيئا منها، ولتجيب عن بعض الأسئلة التي استلزمها قراءة مختلف المذكرات السالفة الذكر، كما ستصحح بعض الاعوجاج الذي شابها"¹.

1 - محمد لخواجة، تقديم المذكرات، ضمن كتاب: عبد العزيز أقضاض، مذكرات مؤسس وقائد مقاتل في صفوف جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2008م، ص: 5.

ومما يشد الانتباه، في تقديم الأستاذ محمد لخواجة لهذه المذكرات، فهمه واستيعابه لمضامينها، فهو في صفحات معدودة تقل عن العشرين يعرض علينا بتركيز شديد، عصاره ما تضمنته هاته الوثائق من حقائق ودروس وقضايا تسلط عليها بعض الأضواء لأول مرة، وهذه بعض الشذرات من التقديم المذكور، على لسان محمد لخواجة:

- تأتي فصول مذكرات عبد العزيز أقضاض لتبين باللموس أن عمل جيش التحرير في الشمال الشرقي كان غير ما كتب في مذكرات العديد من لاجئي تطوان. وهي المذكرات التي أبانت عن خبايا جديدة تنشر لأول مرة.

- المذكرات أبرزت شخصيات قاتلت بإصرار كبير وشجاعة نادرة وغنمت أسلحة لاحقت بها قوات العدو طيلة شهور².

- المذكرات أبانت عن لجوء فرنسا إلى جميع الوسائل لإضعاف الثورة، بما فيها تأليب بعض القبائل ضد المقاتلين، ثم خسرت هذه المعركة كما خسرت التحالف مع إسبانيا يوم أن ألحق بها المقاتلون هزيمة نكراء في معركة "بين الصفوف"³.

- المذكرات أبرزت التنظيم الدقيق والسرية التامة اللذين سارت عليهما الثورة والذكاء الوقاد الذي باشرت به كل أعمالها حين استقطابها لأعوان المنطقة لتمرير تنقلات المتدربين⁴ على حمل السلاح، كما أشارت إلى أن التكوين الذي خضع له المقاتلون شمل الميدان العسكري والسياسي والاجتماعي، إلى أن يقول: "إذا كان من فضل لمذكرات عبد العزيز الدوائري فهو حرصها على إبراز العديد من الوثائق ذات قيمة تاريخية تخص كل مرحلة من المراحل التي قطعها جيش التحرير من بداية تكوين الخلايا إلى حين إدماجه في الجيش الملكي"⁵.

- فللأستاذ محمد لخواجة الشكر الجزيل على هذا الوفاء لروح الفقيه صاحب المذكرات ولهذا الإنجاز الذي مكنتنا من الاطلاع على رصيد هائل ومهم من تراثنا وذاكرتنا، إذ لولا مبادرته وموافقة ومساعدة ورثة كاتب المذكرات بدون شك، لأتت عوائد الزمان على هذا الرصيد الثمين، ليصبح نسيا منسيا.

2 - عبد العزيز أقضاض، مذكرات مؤسس وقائد مقاتل في صفوف جيش التحرير، م.س، ص.9.

3 - نفسه، ص.11.

4 - نفسه، ص.11.

5 - نفسه، ص.11.

أما العناصر التي أود تناولها في عرضي هذا، من بين عناصر وقضايا متعددة تناولتها المذكرات المكونة للكتاب موضوع القراءة، فتنحصر في:

1. التعريف بعبد العزيز أقضاض الدوائي.
2. دوره في تأسيس جيش التحرير بأجزناية "مثلث الموت".
3. أهم العمليات القتالية ضد العدو.
4. بعض القضايا السياسية الشائكة الواردة في المذكرات.

وقبل الحديث عن مضامين المذكرات يبدو من المفيد التعريف بكتابها الذي عاش كل أحداث جيش التحرير في مثلث الموت: بورد، تيزي وسلي⁶، أكنول، من بدايتها إلى نهايتها، أي من فترة التأسيس إلى أول هجوم على العدو ببورد يوم 2 أكتوبر 1955م، مروراً بالمعارك الأخرى المتتالية التي عجلت بعودة محمد الخامس في 16 نونبر 1955م، وأجبرت العدو على توقيع وثيقة الاستقلال بتاريخ 2 مارس 1956م.

5. التعريف بعبد العزيز أقضاض الدوائي:

ولد عبد العزيز أقضاض الدوائي سنة 1922م بدوار الدوائر، مشيخة أولاد علي بن عيسى التابعة للملحقة تيزي وسلي بقبيلة أجزناية، إقليم تازة. وهو سليل أسرة مقاوم، باعتبار أن والده المرحوم المجاهد الشريف سيدي محمد بن محمد أقضاض شارك قبل وفاته رحمه الله، في الانطلاقة الأولى للمقاومة الريفية ضد الاستعمار بقيادة الزعيم البطل المرحوم محمد بن عبد الكريم الخطابي والتي امتدت من 1921 إلى 1926م. ولما توفي الوالد كان عبد العزيز لازال صبياً⁷.

ولما بلغ سن الدراسة، أدخلته والدته إلى جامع زاوية الدوائر تنفيذاً لوصية والده، واستظهر القرآن الكريم عن ظهر قلب وعمره لا يتجاوز اثنتي عشر سنة، ثم انتقل إلى جامع العرقوب ببني يونس السفلى بأجزناية حيث أتقن رسم القرآن وتلاوته بعلم تجويده برواية ورش المتبعة في المغرب منذ عدة قرون. وبعد ذلك التحق بجامع الريف بعين باردة بقبيلة بني زروال حيث توسع في علم

6 - هناك من نطقها وكتبها هكذا: تيزي أوزلي: انظر: محمد الحبيب الفرقاني، محمد أجار، سعيد بونعيلات، مسيرة حياة ومسيرة مقاومة، مطبعة الداوديات، مراكش 2011م، ص 112.

7 - عبد العزيز أقضاض، مذكرات، م.س، ص 21.

التجويد على شيخه الفقيه محمد بن قاسم الزروالي الذي كان يجيد تلاوة القرآن بالقراءات السبع، كما تلقى في رحاب هذا الجامع دراسة في الفقه والتوحيد وقواعد اللغة العربية وبعض الكراريس في التحفة والحساب، كما كان يحفظ مقدمة ابن أجروم ومتن ابن عاشر، وألفية ابن مالك⁸.

ثم واصل رحلته العلمية إلى جامع أولاد ابن سبيكة بقبيلة بني مسارة بناحية وزان بقصد الدراسة على العالم الشريف محمد بن العربي البقالي الذي كان مشهورا في زمانه بتدريس مختلف فنون العلوم، إلا أن أمله هذا لم يتحقق نظرا لما تعرض له من أسر تعسفي مع واحد من رفاقه الطلبة في سجن وزان لمدة 15 يوما من طرف شرطة الاستعمار الفرنسي، الذي كان لا يرضيه تعلم المغاربة في ذلك العصر. وبعد هذا الحدث الذي كان سببا في عرقلة سعيه نحو تلقي العلم، وقع الاختيار عليه سنة 1944م من طرف جماعة بني حازم التابعة لمركز تيزي وسلي (قريب من قاسيطا) إماما في جامعها وعمره آنذاك 22 عاما، ولازم الإمامة في هذا الجامع المبارك من هذه السنة إلى حين اندلاع ثورة جيش التحرير بأجزناية في صبيحة 2 أكتوبر 1955م⁹.

بالإضافة إلى إسهامه الفعال في تأسيس جيش التحرير وجهاده في صفوفه، خصوصا بعد نفي محمد الخامس مباشرة، إلى أن عاد وتحقق استقلال البلاد، انخرط بعد الاستقلال في صفوف القوات المسلحة الملكية إلى حين تقاعده سنة 1975م برتبة نقيب (قبطان). وعن ظروف التحاقه بالقوات المسلحة الملكية، يقول عبد العزيز أقضاض: "وبعد ما ابتهجنا أسعد الابتهاج في اليوم السعيد 14 يوليوز 1956م الذي قام فيه جلالة الملك المفدى سيدي محمد الخامس قدس الله روحه بزيارته الملكية التاريخية الكريمة التي شرف بها قبيلتنا أجزناية المجاهدة، وترحم على شهدائها الأبرار رحمهم الله عند حلوله بمراكزها الثلاثة (بوريد وأكنول وتيزي وسلي)¹⁰ واطلع على ما قدمته بسخاء من التضحيات العظيمة بالأموال والديار والدماء في سبيل تحقيق عودته المظفرة من المنفى إلى عرشه المجيد، بعدئذ بادرنّا أنا ورفيقي الخاص الفقيه العلامة الثوري السيد علي أقضاض بالتحاقنا لتعزيز صفوف القوات المسلحة الملكية إبان تأسيسها، حيث عينا بظهير شريف في هيئة الإرشاد التابعة لها

8 - نفسه، ص 21.

9 - نفسه، ص 22.

10 - هذه المراكز الثلاثة هي ما أطلق عليها مثلث الموت في المغرب، في المنطقة المتواجدة شمال مدينة تازة في اتجاه الريف الشرقي، وقد سمي بمثلث الموت نظراً للخسائر الكبيرة في الأرواح والعتاد التي تكبدها المستعمران الفرنسي والإسباني، وخصوصاً الفرنسي.

تحت أوامر قائدها الأعلى الملك المفدى سيدي محمد الخامس رضي الله عنه ورئيس أركانها العامة، رفيقه في الجهاد صاحب السمو الملكي ولي العهد مولانا الحسن آنذاك. وكان تعييننا في هذه الهيئة اعتبارا من فاتح يوليوز 1956م¹¹.

ثم التحقنا معاً، يضيف نفس المصدر، في 15 مارس 1958م بالمدرسة العسكرية لتكوين الضباط بابن سليمان حيث قضينا سنتين، وبعدها تخرجنا منها ضابطين متدربين، وبعد مدة من تخرجنا قدم رفيقي الضابط علي أقضاض طلب الاستعفاء من مهام الجيش بسبب تدهور أحواله الصحية، وعندما وصل طلبه هذا إلى مقر القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية بالرباط استدعاني الجنرال الكتاني إلى مكتبه، حيث حادثني طويلا حول موضوع طلبه إلى أن صرح لي بالموافقة على طلب استعفائه، بشرط بقائي أنا ورفيقي الخاص في خدمة الجيش فالتزمت له بذلك، وكان التزامي هذا مفعولا والحمد لله. ذلك أنني عندما تخرجت ضابطا باشرت عملي العسكري في الفوج التاسع عشر المرباط آنذاك في قصبة تادلة، ثم عينت آمرا للسرية الرابعة المرباطة في الثكنة العسكرية بأفوارار بإقليم بني ملال، ثم انتقلت إلى الفوج الأول المرباط بميدلت حيث كان عملي نائبا لأمر هذا الفوج، وضابطا للتجهيز العام الخاص به، وفي 6 أبريل 1966م عينت ضابطا مسؤولا عن الأمن العسكري بمعمل السلاح بطريق عين الشقف بفاس، وقمت بهذه المسؤولية العسكرية الحيوية إلى غاية 31 دجنبر 1974م. وابتداء من فاتح يناير 1975م، تمتعت بالتقاعد العسكري الخاص بالضباط برتبة نقيب¹².

وعند إحداث المجلس الوطني المؤقت لقدامى المقاومين وأعضاء جيش التحرير، أصبح أحد أعضائه ومستشارا في مكتبه، وشارك في المسيرة الخضراء بصفته عضوا في المجلس الوطني وأحد أبرز قادة جيش التحرير في الشمال الشرقي. وكانت وفاته رحمه الله بفاس يوم السبت 16 غشت 1992م¹³.

6. دوره في تأسيس جيش التحرير بأجزناية "مثلث الموت" والبحث عن السلاح:

أ. دوره في تأسيس جيش التحرير بأجزناية:

تجدر الإشارة في البداية إلى أن الشعور بضرورة الدفاع عن حوزة البلاد، درءا للخطر الذي يهدق بها بدأ في شمال الريف الشرقي ببلاد أجزناية (مثلث الموت: بورد- تيزي وسلي- أكنول) قبل

11 - عبد العزيز أقضاض، مذكرات، م.س، ص 311.

12 - نفسه، ص 312.

13 - نفسه، ص 22.

نفي محمد الخامس في غشت 1953م، هذا الحدث العظيم الذي فجر ثورة الملك والشعب، وأدى إلى ظهور عمليات مقاومة في عدة جهات من المغرب¹⁴، وبرز جيش التحرير بمثابة الموت المذكور، الذي فجر ثورة مسلحة يوم 2 أكتوبر 1955م، أربكت حسابات العدو المستعمر وجعلته يعجل بعودة الملك المنفي، ومعه استقلال البلاد¹⁵. جيش التحرير هذا، كان عبد العزيز أقضاض الدوائي أحد مؤسسيه البارزين إلى جانب كل من الفقيه علي أقضاض (إمام مسجد) والفقيه حسن الزكريتي (القاضي الشرعي بالقبيلة)، بالإضافة إلى أفراد آخرين ومجموعات أخرى¹⁶.

يذكر صاحب المذكرات أن الأحداث السياسية الهامة التي عرفها المغرب ما بين 1947 و 1953م كان لها وقع كبير في بلاد جبال الريف، وفي أجزائية على وجه الخصوص. فخلال سنة 1947م، برزت على السطح أحداث كبيرة أهمها:

- زيارة محمد الخامس التاريخية لطنجة يوم 9 أبريل، وما كان لها من أصداء إيجابية على المستويين الداخلي والخارجي.

- تعيين الجنرال "جوان" مقيما عاما لفرنسا بالمغرب خلال شهر ماي من نفس السنة.

- عودة الزعيم البطل المرحوم محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى مقاومة الاستعمار في المغرب وفي شمال إفريقيا، بعدما قضى في المنفى السحيق بجزيرة لارينيون نحو 21 سنة والتجأ إلى مصر الشقيقة يوم 2 يونيو 1947م.

ومن الأحداث الأخرى في نفس الفترة، حسب نفس المصدر:

- مظاهرات تطوان الدامية في 8 فبراير 1948م ضد سوء تصرفات الاستعمار الإسباني إزاء بعض زعمائها الوطنيين التطوانيين.

- تعيين الجنرال "كيوم" سنة 1951م مقيما عاما بالمغرب خلفا للمارشال "جوان" ليقوم بعملية اختطاف الملك الشرعي محمد الخامس من قصره الملكي بالرباط في 20 غشت 1953م.

14 - نفسه، ص 23-24.

15 - الحاج الحسين براءة، مسيرة التحدي، من الملك محمد الخامس إلى الملك الحسن الثاني الباني، مطبعة فيديرانت، سنة 2003م، ص 74 وما بعدها.

16 - عبد العزيز أقضاض، مذكرات، م.س، ص 24.

وفي خضم كل هذه الأحداث المؤلمة في معظمها، التي ألت بالمغرب، وجعلته في وضعية لا يحسد عليها، كانت رجالات أجزناية، من فقهاء وعلماء، وكهول وشباب من مختلف المستويات الاجتماعية، تعمل في الخفاء وتعد العدة للضرب بقوة في اليوم الموعود، لإجبار العدو على الرحيل، وهكذا يذكر المجاهد عبد العزيز أقضاض الدوايري، أنه خلال سنتي 1951 و1952م، تم إنجاز عملين كبيرين:

1- تأسيس الخلية الأولى للثورة الجزناية سنة 1951م.

2- بعثة أجزناية إلى القاهرة للقاء الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1952م¹⁷.

بما أن المؤسسين الرئيسيين للثورة الجزناية، كانوا فقهاء وأئمة مساجد، فإن اختلاطهم برجال القبائل واندماجهم، معهم بحكم طبيعة عملهم، فإنهم كانوا مؤهلين للتأطير وإسداء النصح والتوعية بحقيقة الوضع الخطير الذي يوجد به المغرب، ملكا وشعبا، مما يستوجب السخاء بالأرواح والمتاع، جهادا في سبيل الله، وفداء للوطن والملك. وأبرز من قام بهذا الدور التنويري والتوعوي، الفقيه علي أقضاض، نبض الثورة، كما يسميه كاتب المذكرات الذي يقول: "وسارت بنا ليالي الجمع (جمع جمعة) المباركة على النهج الروحي والعلمي في رحاب جامع زاوية الدوائر المبارك في مشيخة أولاد علي بن عيسى بمنطقة تيزي وسلي¹⁸، إلى أن يقول: "وبعد ذلك أضاف رفيقي الخاص الفقيه العلامة الثوري علي أقضاض رحمه الله، حصة أخرى إلى حصص دروسه الدينية والعلمية التي كان يلقيها في الجامع المذكور، وهي حصة التوعية الوطنية الثورية ضد الاستعمار، وكنت وإياه نلتقي في كل مناسبات رواحنا من أعمالنا إلى دارنا التي كنا نسكنها معا في الدوائر، وكنا نستخدم فيها لاستقاء المعلومات التي تهمنا أول جهاز (راديو) ظهر في أجزناية، اشتراه وأعاره إلينا صديقنا الحميم المجاهد السيد شعيب بن موح أعمار الجزنائي الحازمي، الذي كان يمتهن آنذاك التجارة بين القبيلة وفاس، كما كان يزودنا أحيانا وبصفة سرية بكل ما وجدته من جرائد ومنشورات وما سمعته من أخبار وأسرار تروج في هذه المدينة عن تحركات الوطنيين. وتصرفات الاستعمار. وكان رفيقي الخاص الفقيه السيد علي أقضاض، هو الذي كان يواظب باستمرار بواسطة المذياع على التقاط كل ما كانت تبثه إذاعات العالم من نشرات الأخبار بالعربية، خصوصا منها إذاعة القاهرة وإذاعة صوت العرب

17 - نفسه، ص 30.

18 - نفسه، ص 31.

من القاهرة، وإذاعة دمشق (...). وهذا العمل كان يشعرنا بالخطر الاستعماري وما يشكله من تهديد لسيادة المغرب (...). وكان يذكرنا في أحيان أخرى بفضائل الجهاد في سبيل الله وينشر في نفوسنا حب التضحية والاستشهاد في سبيل تحرير وطننا بالحديد والنار من قيد الاستعمار، مهما دعانا الواجب إلى ذلك، ومن هنا انطلق تفكيرنا في الاستعداد لتأسيس الثورة الجزائرية المسلحة ضد هذا العدو الخطير¹⁹. ولإنجاح هذه الثورة، كان لابد من تأسيس وإعداد جيش للتحرير²⁰ قادر على رفع التحدي، وهو ما سنجمل أهم محطاته في الإفادات الآتية، كما وردت في المذكرات موضوع هذه البحث.

1 - ما أن حلت سنة 1951م حتى كانت النخبة الأولى المؤسسة للثورة قد ظهرت تحت ستار الخفاء في أجزائية الشمالية تضم أحسن العناصر من رجالها الواعين بما عليهم من الواجبات نحو وطنهم وملكهم المستعدين لخوض معركة التحرير ضد المستعمر، وكان من ضمن رجال هذه النخبة أئمة مساجد القبيلة وعلمائها وفقهائها وطلبتها حفظة القرآن الكريم، وعدد من رجال الدوائر، ومن الأشراف الأدارة المتمين لزواية الدوائر أولاد جدنا الشريف سيدي علي بن عيسى رحمه الله، في مقدمتهم رجال وشباب عائلتنا الأقضاضية الشريفة النقية آنذاك على الزاوية²¹.

2 - النخبة المؤسسة المذكورة، فكرت في إحداث مركزين سريين لتأطير وتدريب رجال جيش التحرير، الأول ببلدة تدعى "المهرار" (قرب قاسيطا)، لكن بعد ما وقع، يقول المؤلف، من التجاء جماعة من إخواننا قادة الخلايا الثورية التابعين لمنطقة تيزي وسلي إلى المنطقة الخليفية على إثر انكشاف سر تنظيماتهم، وتجنبنا لوقوعنا في مثل ما وقعوا فيه، كان لابد من البحث عن مركز سري ثان لمواصلة عملنا التأطيري والتدريبي بشيء من الطمأنينة، وفعلا وجدنا مكانا عبارة عن دار للمجاهد الفقير أحمد بن عمر أشهبون، مشيدة في موقع ممتاز يسمى "إيار إجملا" الواقع في نقطة من خط الحدود الاستعمارية المصطنعة²².

19 - نفسه، ص 32.

20 - حول واحدة من روايات جيش التحرير يمكن الرجوع إلى: عبد الرحيم الوردغي، ظروف وإنشاء جيش التحرير المغربي 1954-1956م، ضمن أعمال ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالمنطقة الوسطى الشالية ما بين 1911 و1956م، كلية الآداب ظهر المهرار بفاس، يومي 14-15 دجنبر 1995م، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير. ص 203 وما بعدها.

21 - عبد العزيز أقضاض، مذكرات، م.س، ص 43.

22 - نفسه، ص 55 ثم 59.

3 - لم يفت المؤلف الإشارة إلى أن مدينتي تطوان والناظور، أصبحتا ملجأين للعديد "من إخواننا المقاومين اللاجئين إليها من مدن المنطقة السلطانية. على إثر تورطهم في كواليس الشرطة الفرنسية بعد اكتشافها لخلاياهم السرية في الرباط والدار البيضاء في مطلع 1954م"²³.

4 - يتحدث المؤلف كذلك في إطار تأسيس جيش التحرير وإعداداته، عن لقاء تاريخي يوم 17 يونيو 1955م²⁴، جمعه ببعض قادة مقاومة الدار البيضاء، وتم اللقاء بتنسيق المجاهد عبد السلام التاغلاستي، في نقطة معينة في خط الحدود المصطنعة على وادي الهرهار القريب من ملتقى الطرق في قاسيطة، وصافحنا بحرارة الإخوان الآتية أسماؤهم²⁵:

- الأخ السيد برادة الذي كان سنة 1954م عضوا في القيادة الثالثة للمقاومة السرية بتطوان، وبعد التحاقه بمنطقة الشمال انضم إلى قيادة المقاومة السرية بنفس المدينة سنة 1955م.
- الأخ السيد أجار محمد المانوزي السوسي المعروف ببونعيلات الذي كان هو بدوره في سنة 1953م عضوا في القيادة الثانية للمقاومة في الدار البيضاء، وبعد هجرته إلى تطوان في سنة 1954م انضم لقيادة المقاومة المؤسسة فيها.

- الأخ الاستاذ ابن عبد الله الكوكوتي اليزناسني.
- الأخ المناضل الفقير أحمد أوبلعيز التوزاني الذي يرجع إليه فضل تحقيق هذا اللقاء الأخوي.

وفي الوقت الذي يسجل فيه المؤلف باعتزاز هذا اللقاء الأول التاريخي في حدود أجزناية الشمالية بين قادة الثورة الجزناية وقادة مقاومة الدار البيضاء، يعتبره أيضا الحدث الفريد من نوعه الواقع في تاريخ المغرب المكافح ضد الاستعمار في شماله وجنوبه منذ مطلع القرن 20م.

وخلال هذا اللقاء، يضيف المؤلف، "وقع التوافق بيننا على توحيد الكفاح وتعميمه ضد المستعمر في صبيحة 18 يونيو من نفس السنة (1955م)، وهو اليوم التاريخي الذي استشهد فيه قائد قيادات مقاومة الدار البيضاء الشهيد محمد بن علي الزرقطوني رحمه الله سنة 1954م".

23 - نفسه، ص 68.

24 - نفسه، ص 74.

25 - نفسه، ص 74.

وكان اللقاء مناسبة، حصل فيها الاتفاق بالإجماع على مواصلة العمل الجدي بأخذ العهود على أنفسنا جميعا بأن لا نتخلى عما كنا نحن بصدده من تكوين هيئة مختارة من أجل تعميم الثورة الفجائية المقبلة على العدو المستعمر²⁶.

ولتحقيق المبتغى، استمررنا في عقد الاجتماعات الأسبوعية الليلية للتنظيم والتدريب على مدى نحو 40 يوما (...) وعلى المستوى الميداني، كنت أشرف بنفسي، يقول المرحوم عبد العزيز أقضاض الدوائري، وبشكل مباشر على تنظيم جميع رجالنا الجزائيين المنتمين لمشيختنا ومنطقة بوريد في خلاياهم الثورية وتدريبهم على استعمال السلاح وأساليب حرب العصابات في أخرج الظروف من صيف 1955م حيث شدد العدو الحراسة، ومع ذلك تحديناهم بابتكارنا لخطة سرية في غاية الدقة والإتقان والكتمان التام، نفذناها كل بدوره²⁷.

قبل اندلاع الثورة بثلاثة أسابيع، يقول صاحب المذكرات، جاءنا الأخ البطل المرحوم السيد المناضل عبد الرحمان عبد الله الصنهاجي لأول مرة بهال وزعه على القادة الميدانيين الذين تم اختيارهم لتموين الثوار، مع العلم أن هذا الأخ البطل كان قد حل بمدينة الناظور بتاريخ 7 يونيو 1955م لإنجاز المهمة التي أنيطت به من طرف الإخوان بتطوان، وهي رعاية اللاجئين بالمركز الأساسي لجيش التحرير بالناظور، ثم التحق به لنفس الغاية الأخ البطل سي محمد بن سي عبد الله المساعدي -عباس- في الأسبوع الثاني من يوليو من نفس السنة، كما حل عندنا محل الأخ السيد الحسين برادة الذي كان ضمن الإخوان الأربعة السابقين إلى لقائنا في ليلة 17 يونيو من نفس السنة كذلك²⁸.

وبقي أن أذكر يضيف نفس المصدر هنا الأخ الأستاذ سيدي بن عبد الله الكوكوي الذي لعب معنا دورا هاما في إنجاح هذا اللقاء، ثم اختفى من بين ظهرانينا قبل اندلاع الثورة بأيام قليلة ولأسباب لم تعرف لدينا، وكل ما في الأمر أنه بقيت مراسلاته التي تناولت مختلف المواضيع، ترد علينا من تطوان في زمن الكفاح المسلح²⁹.

26 - نفسه، ص 79.

27 - نفسه، ص 81.

28 - نفسه، ص 93-94.

29 - نفسه، ص 94.

ولم يفت المؤلف الإشارة إلى يوم 26 شتنبر 1955م كيوم عصيب عاشه في المركز السري بإيار إجملا، بسبب الزيارة التي قام بها المقيم العام بأكزناية، بمعية مسؤول برئاسة الجمهورية الفرنسية، خصوصا وأن هذه الزيارة وقعت في الوقت الذي كنت فيه مع الأخ عباس المسعدي في المركز نناقش الترتيبات الأخيرة لاندلاع الثورة³⁰.

2- البحث عن السلاح:

علاوة على بعض المسدسات التي اشترها المؤلف من ماله الخاص، وما حصل عليه بعض الثوريين بوسائلهم الخاصة، وإحضار بعضهم لقدر من المال لنفس الغاية، فإنه يمكن إجمال الاتصالات والمسااعي التي بذلها المؤسسون لجيش التحرير من أجل الحصول على السلاح، وأبرزهم المجاهد كاتب هذه المذكرات، في النقاط الآتية:

ب. بعثة أجزناية إلى القاهرة سنة 1952م:

لما حلت سنة 1952م، التي انطلقت خلالها بعض العمليات الفدائية الجريئة ضد بعض أذئاب الاستعمار الكبار في الدار البيضاء، يقول المؤلف، توجهت بعثة من رجالنا الجزنائيين إلى القاهرة للقاء الزعيم البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي، الذي كان آنذاك رئيسا منتخبا دائما للجنة تحرير المغرب العربي، عسى أن يجد لنا وسيلة تمكنا من الحصول على عدة سلاح³¹ بوسائله الخاصة، وبعد انتظارنا، اتفقنا على مواصلة البحث عن غايتنا في جهات أخرى، لاستبطائنا له، وتوقعنا تخلفه بسبب عوائق عرضت للواعد به، وقد أورد المؤلف بالمناسبة أسماء أعضاء هذه البعثة: عمر أبرقي - الحاج حدو التاغيلاسي الجزنائي - عمر أخياط الووتكورتي الجزنائي - الحاج عبد الله مشدود الزكريتي الجزنائي، هذا مع ملاحظة أن ضابطا مغربيا في الجيش الإسباني بمدينة مليلية، وعد وأخلف عندما أخذ المال ولم يأت بالسلاح³².

30 - نفسه، ص 94.

31 - لمحمد أجار روايته عن البحث عن السلاح، انظر محمد الحبيب الفرقاني، محمد أجار، م.س، ص 105-113 وما بعدها.

32 - عبد العزيز أقضاض، مذكرات، م.س، ص 47-48.

ب- زيارة المؤلف لتطوان بحثا عن السلاح³³:

يذكر المؤلف أنه في ربيع 1955م، قرر المؤسسان الرئيسيان للثورة الجزائرية الفقيه الحسن بن حموش الزكريتي روح جهاد أجزائية ورفيقه الخاص نبض الثورة الفقيه علي أقضاض تكليفي بمهمتين سريتين:

الأولى: إبلاغي عنهما كلمة سر إلى القائد العسكري السيد عبد السلام الجزنائي الذي كان يعمل آنذاك في صف الجيش الإسباني، بتطوان برتبة ملازم أول، علنا نجد بواسطته في هذه الجهة صفقة سلاح في السوق السوداء.

الثانية: أن أوصل إلى الوزير الخلفي السيد عبد الخالق الطريس رسالة سرية بخط يد علي أقضاض لتذليل الطريق بين تطوان وأجزائية. وفي صباح 4 أبريل 1955م، يضيف المؤلف، ذهبت إلى مركز تيزي وسلي لطلب رخصة السفر لحضور موسم جدنا الشريف القطب مولانا عبد السلام بن مشيش.

وقد حصل المؤلف بالفعل على الرخصة وسافر إلى تطوان والتقى بالضابط المذكور عبد السلام الجزنائي، الذي سهل مهمته في تطوان. غير أن هذه الزيارة لم تكن مثمرة بشكل كبير، باستثناء مسدس و30 وحدة من فشكه زوده بها الضابط عبد السلام الجزنائي مقابل 600 بسيطة، وعاد إلى أجزائية يوم 10 أبريل 1955م³⁴.

وبخصوص الحصول على السلاح دائما، أورد المؤلف إفادات منسوبة لقادة كبار في تأسيس جيش التحرير وتأطيره، مثل الحسين برادة، الذي أجاب على سؤال المؤلف حول ضرورة توفير السلاح، فقال: "إن الثورة سوف تنطلق من حدود الجزائر إلى المحيط الأطلسي وإن السلاح متوفر بكثرة، وحتى الطائرات يمكن الحصول عليها من إخواننا المصريين بعد اندلاع الثورة..."³⁵.

ومن أجل تدريب رجالنا المنظمين على استعمال السلاح قبل اندلاع الثورة، توصلنا من الأخ عباس المسعدي بست قطع من سلاح البنادق في مركز الهرهار. وكان البطل عباس، يطمئنني أيضا

33 - نفسه، ص 61.

34 - نفسه، ص 67.

35 - نفسه، ص 76.

بأن الثورة ستنتقل من حدود الجزائر إلى المحيط الأطلسي. وأما ما تعلق بالسلاح، فإنه قال لي رحمه الله: "إن السلاح في يد العدو وخزائنه، ومفتاح غنيمته بيد الرجال الأبطال، فكونوهم"، وفعلا، فقد حصل الثوار على ذخائر مهمة من السلاح في أول هجوم مفاجئ لهم على العدو يوم 2 أكتوبر 1955م، هذا في الوقت الذي أشار فيه إلى الوعود العرقوبية لعبد الكريم الخطيب بخصوص توفير السلاح³⁶.

I- أهم العمليات العالية ضد العدو:

تحت عنوان: اندلاع ثورة جيش التحرير في "مثلث الموت"، أورد المؤلف أن الحرب استمرت بعد هذا الاندلاع على أشدها بين جيش التحرير وجيش العدو في مثلث الموت، انطلاقا من صبيحة يوم الأحد 2 أكتوبر 1955م، إلى حين إرغام العدو بالحديد والنار على إعادة الملك الشرعي وعودة الاستقلال.

وهكذا انطلق المقاتلون بالفعل، يوم السبت فاتح أكتوبر 1955م تحت قيادة القائد المجاهد عبد العزيز أقضاض الدواثري، الذي يقول: "خرجنا من ديارنا بالدوائر مسلحين بسلاحنا الشخصي أنا وعمي الشقيق الشيخ عبد القادر أقضاض وأخي الشقيق سي عبد السلام أقضاض.

وبعدما عمدنا إلى رجالنا الثوار المنتمين لمشيختنا وعددهم 33 مجاهدا ليستعدوا للعمل، اتجهنا كل على انفراد إلى دار الفقيه السيد الحسن الزكريتي الكائنة بغابة "المانوازو"، قرب وادي أيت سعود، وحين وصولنا إليها وجدنا في رحابها الفسيح إخواننا المجاهدين لدوار "إبرارت" وعلى رأسهم البطل الفقير احساين بن حدوش قائد ال 50 والمنتمين لدوار "إيار واحدود" وعلى رأسهم البطل الفقير موح بن أحمد بن عيسى قائد ال 25³⁷.

وأثناء سيرنا ليلا إلى تحقيق هجومنا المفاجئ على مركز بوريد في الساعة المحددة، انضم إلينا بقية إخواننا المجاهدين المنتمين لدوار "إخوانا"، وعلى رأسهم شهيد الثورة الأول البطل سي أحمد تهراسست الخولاني قائد ال 50. (...) وسار جيشنا المظفر المتكون من خيرة رجال أجزناية وشبابها، يتصدرهم أئمة المساجد وحفظة القرآن الكريم، تحت رعاية الله ونور القمر المتكامل، في ليلة الرابع عشر من صفر الخير عام 1375 هـ إلى تحقيق هدفنا، وليس معنا من السلاح سوى بعض البنادق التي

36 - نفسه، ص 79.

37 - نفسه، ص 99-100.

توصلنا بها من الأخ الشهيد عباس، وبعض المسدسات التي حصل عليها أصحابها بوسائلهم الخاصة. أما بقية المجاهدين المشاركين في هذه المسيرة الجهادية، فقد تسلحوا بكل ما وجدوا فيه بأسا شديدا كالمطارق الحديدية والفؤوس وغيرها من أدوات الفلاحة، وكذا بالسلاح الأبيض الناجع في حرب العصابات الصامتة. إلا أن السلاح القوي الماحق للعدو الذي كان يحمله كل مجاهد منا في قلبه، كان هو الإيمان الراسخ بعدالة القضية المقدسة التي خرجنا من ديارنا إلى الجهاد في سبيل الله لأجل تحقيقها أو نستشهد دونها في ميدان القتال، ألا وهي تحرير وطننا واستعادة ملكنا (...). وكان هذا السلاح الروحي القاهر للعدو هو السر الحقيقي في انتصاراتنا المتوالية على قواته البرية³⁸.

وبعد أن أمر عبد العزيز أقضاض الدواري بقطع أسلاك الهاتف الرابط بين مركز بوريد ومركز أجدير وأكنول وتيزي وسلي، انطلق الهجوم المضفر بقيادته على مركز بوريد، حوالي منتصف الليل، اقتربنا، يقول المؤلف، " من المركز على الساعة الواحدة بالضبط من صبيحة الأحد 2 أكتوبر 1955م (...) وسرعان ما أقبلنا على حارس العدو في الباب الرئيسي (بوست بوليس) الذي بقي فارغا فاه أمام زحفنا العارم المندفع إلى داخل المركز، فلم يحرك ساكنا ولا فاه بكلمة، وهو يسلم إلينا سلاحه برضاه³⁹.

وفي هذه الأثناء شرع البطلان إدريس والعوش ومحمد واحود في إطلاق وابل من نيران رشاشيهما في اتجاه أرضية المركز لتغطية هجومنا. ولحسن الحظ، لم يقم العدو بالرد عليها بسلاحه في بداية الأمر، وهنا جاء دورنا نحن داخل ساحة المركز، المتلهفون إلى تحقيق غايتنا التي هي غنم السلاح لتسليح المجاهدين، يضيف نفس المصدر، وحقق الله لنا هذه الغنيمة لحظة أن وقع في أسرنا جميع من كانوا في المركز من جنود "الكوم" وأعوان العدو الذين أعطيت لهم الأمان على أنفسهم وعلى أولادهم، شرط أن يدلونا دلالة صحيحة على جميع مستودعات العتاد الحربي للعدو في المركز، ففعلوا ذلك بكل الرضا معلنين انضمامهم إلينا. غير أنه لما أراد البطل المقدم أحمد تهراس الخولاني فتح باب بناية المستودع، وقع اصطدام عنيف بينه وبين حارس المستودع المسمى "المنيزي"، الذي دافع دفاعا شديدا عن المكان بسلاحه الشخصي، "فيزي ميترايوز 24"، لكن المجاهد أحمد الخولاني

38 - نفسه، ص 101.

39 - نفسه، ص 102.

المذكور تمكن من تصنيفته، فهرع المجاهدون إلى داخل المستودع واستولوا على جميع ما كان فيه من سلاح العدو (...) فخرجوا أعزاء بهذه الغنيمة الثمينة لينحروا العدو بسلاحه⁴⁰.

أما حاكم المركز "تادي"، فقد نجا بنفسه بعد أن تمكن من الفرار، وكانت أفضل غنيمة وأغناها تاريخيا، خرجنا بها من دار هذا الضابط الجبان، هي مذكرته اليومية التي تركها في جيب بذلته العسكرية وغنمها المجاهد علي باشا وأعطائها إياي، وعندما تصفحتها وجدت أنه سجل فيها معلومات سرية هامة تتعلق بالجواسيس الذين كانوا يتعاملون معه.

وحين خرجنا من دار العدو، الضابط "تادي"، يفيد المؤلف، سألت رجال الكوم الأسرى عن مكان وجود الذخيرة الحربية فدلوني حالا على مستودعها الذي بعدما اقتحمناه بدون مقاومة، وجدنا في داخله أطنانا مما لا يعد ولا يحصى من القنابل الموضوع في صناديقه الخاصة، وصناديق أخرى بجانبها مليئة بالقنابل اليدوية، وبتأهب شديد أخذ المجاهدون ما استطاع كل واحد منهم حملة منها⁴¹.

وختم المؤلف شهادته بخصوص أول هجوم ناجح لجيش التحرير الجزنائي، على مركز بوريد قائلاً: " أذكر هذا للتاريخ وللجيل الصاعد المثقف أسماء جميع المجاهدين المشاركين تحت إشرافي في الهجوم المظفر على مركز بوريد، في صبيحة 2 أكتوبر 1955م، مذكرا، بأنهم كانوا كلهم من رجال قبيلة أجزناية المنتمين لمختلف دواويرهم في منطقة بوريد (...)، ولم يشاركهم في هذا الهجوم أي واحد من خارج حدود القبيلة⁴².

كان من نتائج ضربة 2 أكتوبر 1955م المباشرة التي سددها جيش التحرير في كل من مثلث الموت بأجزناية، وفي مغراوة ومرموشة وبني وراين وبني يزناسن، إبعاد سلطان المستعمر ابن عرفة من العرش المغربي، ووضعه في قصره بمدينة طنجة وهو ما جعل ابن عرفة يبعث ببرقية إلى رئيس الجمهورية الفرنسية، يعلن فيها عن تنازله عن العرش وعن ولائه للملك الشرعي محمد الخامس، واستبد الرعب أيضا بنفس المناسبة بكل من المقيم العام والكلاوي، الذي طار إلى فرنسا حيث استقر لترقب ما ستنتهي إليه الحرب الدائرة في الريف بين جيش التحرير والجيش الفرنسي⁴³.

40 - نفسه، ص 106

41 - نفسه، ص 108.

42 - نفسه، ص 108 ثم ص: 112-113.

43 - نفسه، ص 130.

هذا الانتصار الباهر على العدو بقيادة عبد العزيز أقضاض الدوائري لجيش التحرير، جعل عباس المسعدي يبعث إليه برسالة تنويه بتاريخ 8-10-1955م ورد فيها على الخصوص "(...) واعلموا أن قبيلة أجزناية الباسلة، سجلت على صفحات التاريخ أروع البطولة، وأن النصر بحول الله لقريب..."⁴⁴.

بعد ذلك الإنجاز البطولي يوم 2 أكتوبر من سنة 1955م، وهو إنجاز أربك حسابات القيادة العسكرية الفرنسية بالمغرب، لما كان لضربة جيش التحرير القوية بمركز بوريد ضد العدو من انعكاس سلبي على الوجود الفرنسي بالمغرب، ومن أثر إيجابي لصالح القضية الوطنية، قررت القوات الفرنسية النزول بكل ثقلها لمطاردة فيالق جيش التحرير المغربي، فدارت بين الطرفين عدة معارك، كانت في غالبيتها لصالح قوات جيش التحرير، من بينها:

• معركة البلوط التي لم تكن في صالحنا⁴⁵.

• معركة "تغدوين"⁴⁶

• معركة جبل "هيل"⁴⁷.

• معركة "ثاراتوشنت"⁴⁸.

• معارك "تينملال" الضارية⁴⁹.

• معارك "وونكورت" الناجحة⁵⁰.

رغم تعدد المعارك، وعتاد فرنسا، في ترجيح كفة الحرب لصالحها، فإنها لم تفلح في ذلك، مما جعلها تعيد التفكير في طريقة تعاملها مع الأزمة المغربية، وتنزل إلى أرض الواقع، بحثا عن حل يخرجها من المأزق، ومما لا شك فيه أن هذا التحول التاريخي في استراتيجية السياسة الفرنسية بالمغرب، هو الذي يشير إليه المؤلف بقوله: "وفي هذا الظرف الحاسم من أواخر أكتوبر 1955م،

44 - نفسه، ص 146.

45 - نفسه، ص 126.

46 - نفسه، ص 147.

47 - نفسه، ص 149.

48 - نفسه، ص 150.

49 - نفسه، ص 156.

50 - نفسه، ص 157.

وعملياتنا الحربية ما تزال مستمرة بشدة ضد قوات العدو في مثلث الموت بأجزناية، بشرنا من كان يتتبع أصداء حركتنا في الخارج وهو رفيقي الخاص نبض الثورة الجزنائية الفقيه العلامة علي أفضاض، بأن النصر على الباب، لرجوع الكلاوي إلى الصواب، وأمل العدو فيه قد غاب وخاب، وبوادر نجاح سفارة وفود التفاوض بين فرنسا وجمهورية الجزائر في منفاه قد ظهرت جلية، فانشروا صدورنا فرحا لهذه البشري الطيبة⁵¹. وبالفعل، فبعد اندلاع ثورة التحرير المباركة بشهر واحد فقط يقول صاحب المذكرات، وسقوط مئات القتلى من صفوف جيش العدو في مناطق مثلث الموت بأجزناية بالخصوص، بادرت فرنسا إلى نقل جلالته الملك محمد الخامس من منفاه السحيق بجزيرة مدغشقر إلى فرنسا (...). وفي يوم 16 نونبر 1955م، وصل الملك إلى المغرب، وكانت في انتظاره خارج المطار وعلى طول الشوارع العمومية المؤدية إلى العاصمة جماهير غفيرة⁵².

رغم عودة محمد الخامس، واصل العدو بذل كل ما في وسعه من أجل القضاء على جيش التحرير بصفة نهائية وفي أسرع وقت، قبل إجراء المفاوضات المغربية الفرنسية، حتى إذا ما تحقق لها الانتصار، أمكن لها إملاء شروط منح الاستقلال التام. وكانت المعركة الفاصلة بين الطرفين هي التي جرت أحداثها يوم السبت 28 يناير 1956م، طبقا لمصدرنا، والتي اشتهرت باسم معركة "بين الصفوف" التابعة لظهر السوق، حيث وصلت فصيلة من جيش العدو قادمة من مركز تايناست، فتصدى لهم المجاهدون وقتلوا المجموعة المتكونة من أربعين جنديا برمتها، وإثر ذلك يفيد المصدر تدخل العدو بفيلقين من المشاة، فاندلعت المعركة الكبرى بين الجانبين، في نفس المكان واستمرت طوال هذا اليوم، ومن حسن حظ المجاهدين أنهم كانوا بداية المعركة قد استولوا على أجهزة الاتصال التي كان يستعملها العدو في تسيير المعركة. وبذلك ارتبك جنوده في الميدان، فصار يضرب بعضهم البعض دون أن يشعروا أنهم مخترقون. كما ارتبك ربان الطائرات الحربية التي شاركت في المعركة، فاخذوا يوجهون الضربات الجوية لجنود جيشهم (...). وفي المساء، انتهت المعركة بانتصار المجاهدين انتصارا باهرا بإذن الله على العدو العنيد⁵³.

51 - عبد العزيز أفضاض، مذكرات، م.س، ص 184.

52 - نفسه، ص 187 وص 201.

53 - نفسه، ص 224.

وكانت هذه أكبر معركة رهيبة على حد قول المؤلف، خاضها جيش العدو ضد جيش التحرير، واستعمل فيها قواته البرية والجوية، ومع ذلك تكبد فيها أفضع خسارة في القتلى والجرحى، وبذلك تكون معركة "بين الصفوف" هاته هي التي عجلت بإمضاء وثيقة الاستقلال في 2 مارس 1956م⁵⁴.

II - بعض القضايا السياسية الشائكة الواردة في المذكرات:

عبر المؤلف، عبد العزيز أقضاض الدوائي، في أكثر من مناسبة، عن موقفه الصريح من بعض الكتابات التي تناولت موضوع المقاومة، فاتفق مع بعضها، كليا مثل مذكرات المقاوم مبروح التومي بلقاسم الوجدي، أو جزئيا، مثل كتاب الحركة الوطنية لعبد الكريم غلاب، ورفض البعض الآخر جملة وتفصيلاً، والأمر يتعلق هنا بكتاب الحركة الوطنية في الشمال ودورها في استقلال المغرب والجزائر، لمؤلفه محمد محو الإدريسي السيدالي، خصوصا ما يتعلق في هذا الكتاب بموضوع تأسيس جيش التحرير بالشمال.

أما القضايا السياسية الشائكة الواردة في المذكرات والتي ما زالت في حاجة إلى تسليط المزيد من الأضواء، فأهمها:

- 1- جيش التحرير الذي ظهر بتطوان يوم 1 يناير 1956م⁵⁵.
- 2- مناورات جديدة لقادة الناظور⁵⁶.
- 3- قيادة الناظور تشكك في مبعوث من عبد الكريم الخطابي وغيره⁵⁷.
- 4- عباس المساعدي يمنع الطريس من السلام على قادة جيش التحرير⁵⁸.
- 5- اجتماع أكنول مع الإخوان سعيد بونعيلات - محمد البصري والمهدي بنبركة: تهجم عباس عليهم⁵⁹.

54 - نفسه، ص 225

55 - نفسه، ص 200

56 - نفسه، ص 231

57 - نفسه، ص 233

58 - نفسه، ص 256، ومن أجل تفاصيل أوفى حول عباس المسعدي، يمكن الرجوع إلى: محمد لخواجة، عباس المسعدي: الشجرة التي تحفي غابة جيش التحرير، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، سنة 2011م.

59 - عبد العزيز أقضاض، مذكرات، م.س، ص 281.

6- مقتل عباس المساعدي⁶⁰.

7- غياب الوفود الصحافية عن زيارة جلالة الملك لقبيلة أجزناية وللمركز الأساسي لجيش

التحرير بالناظور، يومي 14 و15 يوليوز 1956م⁶¹

خلاصة:

يعتبر عبد العزيز أقضاض الدواري، أحد أبرز قادة ومؤسسي جيش التحرير بالريف الذين أبلوا البلاء الحسن في التصدي للمستعمر الفرنسي الذي تكبدت جيوشه خسائر فادحة في العتاد والأرواح، على أيدي رجال قبيلة أجزناية الأشاوس العاملين تحت إمرة هذا القائد الفذ، خلال شهر أكتوبر 1955 وشهر يناير 1956م وكان مسرح هذه العمليات البطولية الريف الشرقي عموماً، ومثلث الموت: بوريد - أكنول - تيزي وسلي⁶² على وجه الخصوص، من أجل إرغام العدو بالحديد والنار على إعادة الملك الشرعي للبلاد، تزامناً مع عمليات فرق أخرى لجيش التحرير في مختلف ربوع الوطن، يشرف على قيادتها العامة القائد البطل عباس المساعدي.

ومما يشهد على الإنجاز التحريري العظيم والبطولة النادرة في تنفيذ العمليات الحربية التي غيرت قناعات العدو وأجبرته على التفاوض من أجل استقلال المغرب وعودة سلطانه رمز وحدة البلاد، الزيارة التاريخية التي قام بها جلالة الملك محمد الخامس يوم 14 يوليوز 1956م والتي شرف بها قبيلة أجزناية المجاهدة، ترحم على شهدائها الأبرار عند حلوله بمراكزها الثلاثة: بوريد - أكنول - تيزي وسلي، واطلع على ما قدمته بسخاء من التضحيات العظيمة بالأموال والديار والدماء في سبيل تحقيق عودته المظفرة، من المنفى إلى عرشه المجيد، علاوة على ما أنعم به هذا الملك على صاحب المذكرات من ترقية وتعيينات في مناصب سامية عسكرية ومدنية متعددة جزاء له على ما قدم لبلاده ولملكه من خدمات، كما ورد على لسان المؤلف نفسه⁶³.

60 - يناقش الأستاذ لخوجة هذا الموضوع بإسهاب في الكتاب المشار إليه آنفاً: عباس المسعدي.

61 - عبد العزيز أقضاض، مذكرات، م.س، ص 301.

62 - عبد الحق المريني، ملحمة محمد الخامس، مطبعة دار المناهل، وزارة الثقافة، سنة 2013م، ص 72.

63 - عبد العزيز أقضاض، مذكرات، م.س، ص 311.

تكوين الشباب وتأهيله: رؤية في المناهج التربوية وآفاق المستقبل

د. محمد بن محمد الحجوي

أستاذ التعليم العالي، سلا

إن الشباب عند كل أمة من أمم الأرض هو رمز العطاء والبناء والتضحية، وهو المستقبل الواعد وربيع الأمة الذي يزهر ويعطي الثمار في كل حين ووقت، إنه بعبارة أشمل أمل الأمة الذي ينير لها الطريق ويجب لها الحياة. وكل أمة لا ترعى شبابها ولا تهيب له الأجواء التي تدفعه للعطاء والبذل والتضحية تعيش في خريف دائم يتسم بالتخلف والبطء في الإنتاج وقلة العطاء وشح البناء، وربما تكون تلك الأمة في مرحلة ما عرضة للزوال لأنها تطفئ بدون شعور الشعلة المضيئة في المجتمع، وتعطل دوران عجلاتها بل توقف نبض قلبها الذي يعطيها الأمل في الحياة.

إن شعور الأمم الواعية بدور الشباب في حياتها هو الذي جعلها تنشيء وزارة خاصة بالشباب، ووزارة تعنى بشؤون الأسرة والطفل، وهذا الإحساس هو الذي جعلها تعمل على تقديم المساعدات المادية والمعنوية للجمعيات والمنظمات والنوادي الثقافية والعلمية التي تعنى بالمراهقين والشباب رياضيا وفكريا وثقافيا ونفسيا، وتؤهلهم للإسهام في كل المجالات العلمية والإبداعية والرياضية.

والمغرب بلد الحضارات الموعلة لا يمكنه أن يتهاون في هذا الجانب الاجتماعي الهام ؛ لقد عزم منذ حصوله على الاستقلال أن يسبق الزمن في كل المجالات الحيوية من أجل التخلص من مخلفات الاستعمار في التعليم والتنمية والبناء والتعمير والإصلاح الشمولي، فكانت العناية بالشباب من الأولويات في كل برامجه لأن التنمية الشاملة لا تتم إلا على يد شبابه المتنور المثقف الذي يعي مقدار دوره في نهضة بلاده، ولذلك فإنه عمل على إيجاد كل ما يمكن أن يسهم في تكوين الشباب وتأهيله

للقيام بدوره حاضرا ومستقبلا، فأسس وزارات خاصة بالشباب والأسرة والطفولة للنهوض بهذه الفئة اجتماعيا ورياضيا وفكريا ونفسيا، وتفرد من بين سائر أمم الأرض بتخصيص يوم لعيد الشباب، وهو اليوم الذي يصادف عيد ميلاد جلالة الملك نصره الله وأيده، والغاية من الاحتفال به هو التعبير عن فرحة الشعب بهذا اليوم الذي هو يوم عيد لكل شباب المغرب، يعبرون فيه عن رغباتهم وآمالهم وما يطمحون إلى تحقيقه على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والعلمي .

إن إشعار الشباب بدورهم في المجتمع، وما ينتظر منهم أن يحققوه في المستقبل في كل المجالات الحيوية وبخاصة قطاعات الاقتصاد والتعليم والوحدة الترابية والعلاقات التي تربط المغرب ببلدان أخرى هي الرؤية الشمولية والهدف السامي والغاية النبيلة من وراء هذا الاحتفال، ولذلك يخصص الملك نصره الله وأيده - لأهمية هذا اليوم في حياة الأمة - خطابا يبين فيه الأهداف التي يطمح المغرب لتحقيقها في المستقبل القريب والبعيد، والإكراهات التي تواجه البلاد في التنمية الشاملة، وما ينبغي القيام به نحو شباب الأمة من أجل مشاركتهم في التنمية الشاملة والحفاظ على الوحدة الترابية مثل أسلافهم الذين قاوموا الاستعمار ووضعوا الأساس لبناء بلدهم فانتقلوا من جهادهم الأصغر إلى جهاد أكبر ؛ وهذا الخطاب يكون منبها للحكومة أيضا لزيادة العناية بالشباب في برامجها ومخططاتها، ولكل الأسر المغربية كي تسهم في هذه الجهود بتوجيه الأبناء نحو التعلم والتربية على المواطنة واتباع نهج السلف الذين حافظوا على وطنهم ودينهم وأصالتهم .

ولا يخفى على كل متتبع للأوضاع الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية في المغرب أن الشباب يجتاز في المرحلة الراهنة ظروفًا صعبة نتيجة الوضع العام الذي يعاني منه المغرب وقلة دخل الأسر والبطالة التي لم يسلم منها الشباب الحاصل على الشواهد العليا، وكل ذلك ينعكس سلبا على الأوضاع الاجتماعية حيث أصبح عدد كبير منهم يشكلون عبئا ثقيلا على أسرهم، ولا يسهمون في تنمية البلاد بالشكل المنتظر منهم.

وإذا كانت الدولة تنفق على أبنائها في التعليم والصحة والرعاية أموالا طائلة فإنها تنتظر من وراء ذلك دورهم المتميز في الإصلاح والبناء على جميع المستويات.

واجبات الأمة نحو شبابها

إذا كان الجميع يؤمن بأن الشباب هو العنصر الفعال في حياة الشعوب حاضرا ومستقبلا، فإن هذا الشعور الجماعي لا يتحقق إلا إذا كان واقعا ملموسا بالتفكير والدراسة لحاجيات الشباب في

الجوانب التعليمية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، ووضع الوسائل الكفيلة بتحقيق تلك المشروعات وتتبع نتائجها من طرف الدولة والهيئات المدنية؛ إن تأهيل عقول ونفوس رجال المستقبل ليس بالأمر السهل لاسيما أن شباب المغرب ينشأ في بلد ثوابته التي ينبغي الحفاظ عليها في دينه ولغته وتاريخه وتوجهه السياسي والفكري، هي ثوابت متأصلة فيه منذ قرون عديدة. ولذلك كان مشروع تأهيل الشباب ورعايته من كل الجوانب أكثر المجالات أهمية في سائر المجتمعات، لأن بناء العقول وإصلاح النفوس لا يطلب فيه توفير الثروة المادية فقط وإنما يحتاج هذا المجال إلى الخبرات التربوية والنفسية والاجتماعية التي تجيد التعامل مع صنوف متعددة من الناس يختلفون في أمزجتهم وأفكارهم وتطلعاتهم وفلسفتهم في الحياة، فليس من السهل أن تحقق الأمة نهضة علمية وفكرية وثقافية واطمئنانا نفسيا لشريحة عريضة من شبابها بدون دراسة معمقة لمتطلباتهم وطموحاتهم، وليس من السهل أن يحقق شبابها تفوقا متميزا في كل أنواع الألعاب الرياضية في المباريات الوطنية والدولية، وتميزا في الموسيقى والرسم والنحت، ونبوغا في الإبداعات الفكرية والأدبية والعلمية، وتجديدا في الاختراعات بدون الاهتمام بهذه الجوانب على يد خبراء؛ قد يكون للأمة شباب موهوب في هذه الميادين لكن ذلك لا يحصل إلا بعدما تبذل الأمة جهودا صادقة في التكوين والبذل والعطاء والإشراف وتتبع النتائج ومحاسبة المقصرين.

إن الشباب منجم غني بالمعادن المتنوعة والنادرة، وثروة لا تقدر بثمن في حياة الأمة، لكن ينبغي حسن استغلال هذه الثروة بكل الطرق العقلية والنفسية والتربوية التي تحقق نتائج مثمرة لهم ولأمتهم. ولعل النظر في الأماكن التي تحتضن هذا الشباب وتكونه تعد من الأولويات التي ينبغي أن تكون في برامج الحكومات المتعاقبة والمجتمع المدني والأسر؛ إن المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز البحث العلمي والأندية الرياضية والفنية وأوراش التكوين لاكتساب المهارات والخبرات هي الفضاءات التي ينبغي أن تحتضن شبابنا، فالأمة مطالبة بتشييد المؤسسات التربوية والعلمية والرياضية والفنية باستمرار، وتكوين الأطر الإدارية والتربوية التي تشرف على تسييرها، وتفكر في تخصيص الميزانية التي تليق بحجم هذه الثروة البشرية، ثم تفكر كيف تستقطب الشباب إليها ليكون المكان المفضل لديهم. وقد كان هذا الأمر يشغل بال ملوك المغرب على امتداد العصور، ويكفي أن ننظر إلى اهتماماتهم بهذا الأمر في العصر الحديث بدءا من فجر الاستقلال، فقد كان محمد الخامس، رحمه الله، الذي عاش في مرحلتين من تاريخ المغرب الحديث: مرحلة الحماية والحجر، ومرحلة تحقيق الاستقلال والحرية، كثير الاهتمام بالشباب برغم الظرف السياسي الذي كان يعاني منه المغرب، فقد

جعل القضايا التي تعين المغرب على التخلص من سلبات المستعمر من الأولويات التي ينبغي دراستها ولا سيما القضايا الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية. وإذا كان التعليم وإعداد جيل المستقبل هو مفتاح القضاء على كل الهفوات فإن هذا الملك المجاهد قد جعلهما من أولويات المغرب المستقل. ولذلك كان التفكير في تهيء الأطر الإدارية والتربوية التي تسهر على المنظومة التعليمية وتكوين الشباب ومراجعة المناهج التربوية والمقررات التي ترفع من مستواهم في نظام التعليم العتيق والتعليم العصري، من اهتماماته قال، رحمه الله، في خطاب طنجة التاريخي سنة 1947م يبين حرص المغرب على نشر التعليم الحديث الذي يساير التطورات المستجدة والقديم الذي يحافظ على الدين والقيم والأصالة: "ولما علمنا أن لا حياة لهذه الأمة إلا بما تقدم به سلفها الكريم أخذنا على عاتقنا نشر العلم سواء منه الجديد والقديم، هذا لتتوق به إلى تحلية النفوس بأنوار اليقين ومكارم الأخلاق، وذلك لاكتساب وسائل السعي إلى الأمام في كل سبل الرقي والارتزاق".

هذا التصور العام لإصلاح التعليم والرقي به أبرزه، رحمه الله، في نظريته الشمولية لإصلاح التعليم القديم، وركز على جامعة القرويين باعتبارها الحصن الحصين والقلعة المتينة البنيان التي تحمي الشريعة الإسلامية واللغة العربية وتاريخ المغرب، وهي القلعة التي تخرج منها العلماء الأفاض الذين كان لهم إشراق وتميز في المغرب والأندلس وجنوب الصحراء، فقال: "فوجهنا عنايتنا لجامعة القرويين التي كان لها الحظ الأوفر في المحافظة على كيان الحضارة الإسلامية، وإمداد البلاد بعلماء أعلام كانوا مفخرة في تاريخ الإسلام، فما تركنا وسيلة ترد لها مجدها وتعيد إليها سمعتها إلا اتخذناها"¹

إن الاهتمام البالغ بالتعليم القديم وبأكبر جامعة في العالم الإسلامي وأقدمها كان يواكبه اهتمام بحرص وشدة على تثبيت مناهج التعليم العصري في المدارس والمعاهد التي تأسست في مجموع مدن المغرب وأخذت تلقن التلاميذ العلوم الحديثة واللغات الأجنبية بالإضافة إلى اللغة العربية والتاريخ الإسلامي والمغربي وتاريخ العالم القديم والحديث والمعاصر بمناهج حديثة وطرق تربوية مخالفة لما هو عليه الحال في المعاهد العتيقة من حيث أسلوب التلقين والمنهج ونظام الشهادات، فكان على محمد الخامس، رحمه الله، أن ينظر إلى هذا التعليم بنفس العناية التي كان يوليها للتعليم العتيق لاسيما أن التعليم العصري أصبح ضروريا في تخريج الأطر الفكرية والإدارية والتقنية التي كان المغرب في

1 - انظر مجلة دعوة الحق، عدد 389.

حاجة إليها في تلك المرحلة، ولذلك وجدنا محمدا الخامس في خطاب العرش يوم 18 نوفمبر من سنة 1945م يبين حاجيات المغرب لعدد المدرسين في كل تخصص والمدارس التي ينبغي تأسيسها لتستوعب الأعداد المتزايدة من التلاميذ، فقال : "وأهم المهمات التي لا نزال نحث عليها بإلحاح إعداد المدرسين لقوة احتياج البلاد إليهم، لا يتم لنا إصلاح حال التعليم حتى نهيء المدارس التي ستشيدها الحكومة والأحباس والأفراد لإيواء شبابنا المتبعثر في قوارع الطرق سدى. والسبيل الواحد لإعداد أولئك المدرسين هو إقبال جميع التلاميذ على تحصيل شهادة التدريس سواء في العلوم القديمة أو الحديثة، سواء في الابتدائي أو الثانوي، بل حتى في النهائي. تفتقر الخمسون مدرسة التي ننوي إحداثها في كل سنة إلى مائتين من المدرسين وخمسين من أساتذة القرآن الكريم. كما تحتاج كليتا القرويين وابن يوسف إلى مدرسين يشغلون ما نراه يفرغ من حين إلى حين من وظائف التدريس العالي الإسلامي. هذا واجب أكيد يلقيه اضطراب البلاد إلى الرقي على عاتق كل واحد منا سواء الآباء أو الأبناء"²

هذا النص بالغ الدلالة والأهمية لكونه يطرح المشاكل التي كانت المنظومة التعليمية تعاني منها على مستوى التأطير وبناء المؤسسات في فترة كان فيها المغرب مقيدا بما تمليه عليه الحماية من قوانين، كما يطرح الحلول الممكنة لحل هذا الإشكال بتصور واضح فيما يحتاجه المغرب من مدارس ومدرسين في جميع أسلاك التعليم، ويلقي فيه الملك المسؤولية على الجميع، لأن مشكلة التعليم لا تعني طرفا واحدا وجهة معينة وإنما الأمة كلها مسؤولية عنه، وهذا هو التصور السليم للعملية التعليمية والتربوية في كل زمان ومكان.

وبعد سنتين من حصول المغرب على استقلاله، وبالضبط في سنة 1958م كَوّن، رحمه الله، لجنة عليا تشرف على إصلاح التعليم، وتضع تصورا واضحا لمستقبله بمراعاة التطورات التي كان يشهدها العالم آنذاك، وكانت هذه اللجنة تتكون من رجال وطنيين وعلماء وخبراء في التربية والتدريس. هذه الجهود برهن بها محمد الخامس، رحمه الله، على العناية التي كان يوليها لإصلاح التعليم وتأهيل الشباب للقيام بدوره، معتبرا أن الحداثة والتنمية في جميع المجالات التي كان يطمح المغرب لتحقيقها لا يمكن المرور إليها إلا بإصلاح مناهج التعليم وإقبال شباب الأمة على التعلم

2 - المرجع نفسه.

سواء كان تعليماً قديماً أو حديثاً، لأن الغاية هي القضاء على الأمية والجهل ورسم الطريق للشباب لإيجاد الشغل والإسهام في بناء الوطن.

هذا النهج في الرؤية الشمولية لما كان يطمح إليه المغرب من إصلاح تعليمي واجتماعي مع التفتح على التطور والتجديد الذي كان يشهده العالم هو الذي سيسير عليه الحسن الثاني، رحمه الله، حينما اعتلى العرش، فقد كان إصلاح التعليم وتكوين الشباب وإيجاد الشغل له هو شغله الشاغل في كل خطبه وتوجيهاته ولقاءاته مع النخب الفكرية وأساتذة الجامعات والأحزاب والنقابات لاسيما أنه كان يرى بوضوح ما حققت الأمم في الغرب وآسيا من إنجازات علمية واقتصادية وتجارية بفضل تطوير تعليمها وجعله يساير البحوث العلمية في كل الميادين ؛ لقد أصبح العلم هو سيد الموقف في كل إنجاز صناعي أو تقني أو اقتصادي أو تجاري أو فلاحي، فقد عملت تلك الدول على تطوير جامعاتها ومعاهدها العليا ومراكز البحوث والمختبرات العلمية، وأغدقت أموالاً كثيرة على البحوث العلمية وشجعت العلماء والباحثين، فتطورت صناعاتها وفلاحتها وتجارها ونما اقتصادها واستقرت أوضاعها الاجتماعية والأمنية. والمغرب الذي هو أقرب دولة إلى أوروبا لا يمكنه أن يغفل تتبع ما يطرأ عند جيرانه من تقدم وازدهار على جميع المستويات، لذلك فقد سائر الحسن الثاني الجهود التي بذلها والده في إصلاح التعليم والوضع الاجتماعي والاقتصادي. وقد حقق الكثير من الإنجازات في هذين الميدانين، لا يمكن أن ينكرها أي دارس وباحث لتاريخ المغرب الحديث، وكانت هذه الإنجازات منصبة على جميع أسلاك التعليم من الابتدائي إلى العالي وكذلك مراكز البحث العلمي³. وبرغم هذه الجهود فإن المغرب لم يحقق ما حققته أمم كثيرة كانت بالأمس القريب في مرتبته أو أقل منه في جميع المجالات وبخاصة العلمية والاقتصادية والتجارية؛ وهناك أسباب كثيرة ربما كانت وراء هذا التأخر الذي عرفه المغرب مقارنة بدول أخرى، فالميزانية التي كانت تخصصها الدولة للجامعات والبحث العلمي لا يمكنها أن تحقق ما تطمح إليه البلاد من تقدم في هذا المجال مقارنة بما فعلت الدول الأخرى، هذا بالإضافة إلى أن المناهج التربوية والتعليمية لم تتطور بالشكل الذي يساير تلك المرحلة حيث لم تصل إلى المستوى الذي عرفته الدول المتقدمة التي

3 - لقد نشرنا دراسات بينا فيها الجهود التي بذلها المغرب في هذه المرحلة على مستوى التعليم القديم والحديث، ومنها مقال " التوجيهات السامية في ميدان التربية والتعليم وآفاق إصلاحه في الميثاق الوطني " نشر بمجلة " دعوة الحق " عدد 362 سنة 2001م. ومقال "أثر جامعة القرويين في الإشعاع العلمي والثقافي والإصلاح الاجتماعي. نموذج المفكر علال الفاسي." نشر بمجلة "دعوة الحق" عدد 364 سنة 2002م.

كانت دائمة التغيير في المناهج وطرق التدريس لتلائم المستجدات العلمية والظروف الاقتصادية والتطور الاجتماعي؛ إن الميدان التربوي يحتاج دوما للمراجعة والنقد لمعرفة الهفوات والأخطاء التي تعيق العملية التعليمية. وهذه الوضعية لم تكن غائبة عن الأذهان، فقد نبّه إليها الحسن الثاني، رحمه الله، في الكثير من خطبه وتوجيهاته لكي تكون المناهج مواكبة للإصلاحات التي كان المغرب يقوم بها، ولما يعرفه العصر من تطور سريع في جميع الميادين، إذ كان القرن العشرون وبخاصة النصف الأخير منه من أكثر القرون تطورا في العلم والصناعة والتقنيات والمواصلات والفلاحة والإصلاح الاجتماعي. لقد نبّه الحسن الثاني في خطاب عيد العرش سنة 1997م الشعب إلى العوائق التي تقف في مسار التنمية والإصلاحات الكبرى وتكوين الطاقات البشرية، وركز على نظام التعليم الذي لم يتم تكييفه مع متطلبات العصر، فقال رحمه الله: "لن تكون هذه الإصلاحات كافية لتحريك مسار التنمية بالسرعة التي نسعى إليها إذا لم يؤخذ كذلك بعين الاعتبار أهمية تكوين الطاقات البشرية والدور الحيوي الذي تلعبه التجهيزات والمواصلات.

ففيما يخص إعداد الطاقات البشرية فإنك تعلم مدى انشغالنا بالحالة التي يوجد عليها نظام تعليمنا الذي إذا لم يتم تكييفه مع ما يتلاءم ومتطلبات العصر فإنه قد يصبح أكبر عائق أمام اقتصادنا في معركة التنافس الدولي"

هذه رؤية شاملة للتنمية التي ينشد المغرب تحقيقها، وقد ارتبطت بأهم عنصر في الإنتاج وهو دور العنصر البشري الفاعل ودور التعليم في تكوين الشباب، وكان بالإمكان أن تكون مثل هذه التوجيهات محركا بقوة كل الجهات المسؤولة للقيام بدورها في إصلاح التعليم والعناية بالبحث العلمي الذي هو أساس كل تنمية، وتوجيه الشباب الوجهة التي تنمي قدراته العقلية والنفسية وتجعله مندمجا في مجتمعه.

كما كان تصور الحسن الثاني رحمه الله الشامل لإصلاح قطاع التعليم مرتبطا دوما بمجال التشغيل، وجعل التعليم ذا أهداف وغايات وبخاصة التعليم التطبيقي الذي يوفر للشباب الشغل ويحفظ كرامتهم في المجتمع، وقد تجلّى هذا التصور في خطاب عيد الشباب الذي ألقاه سنة 1996م حيث قال: "العمل الآجل - شبابي العزيز - هو أن تتجه من عندتك إلى التعليم التطبيقي، وقد رأيت أن هذا التعليم هو الذي نجح في الدول الأكثر غنى في العالم كله، أن تتجه إلى التعليم والمعرفة ذات التطبيق وذات الدخل"

إن الحسن الثاني رحمه الله كان في كل مناسبة ولقاء يذكر الشباب والشعب المغربي كله بأن القاطرة التي تخرج المغرب من التخلف هو إصلاح التعليم وإقبال الشباب على التعلم، وربط التعليم بسوق التشغيل، فلا يعقل أن يقبل الشباب على تعليم ينتهي بهم إلى البطالة والتسكع في الشوارع، وهذه الرؤية تعتمد على التخطيط العقلاني لرصد حاجيات الأمة على المدى القريب والبعيد قصد تكوين الشباب في المجالات التي يجدون فيها شغلا يحفظ كرامتهم وتنتفع بهم أمتهم، فلذلك كانت كل رهانات الإصلاح مرتبطة بالتعليم الموجه للأهداف المرسومة وسوق العمل الذي يرتبط بالتنمية، قال، رحمه الله، في خطاب ثورة الملك والشعب سنة 1998م "فالتعليم والتشغيل هما الأساسان اللذان يجب علينا أن نضع عليهما قاطرة المغرب، وبدونهما لا يمكننا نهائيا أن نخوض أي معركة وبالأحرى أي ملحمة"

هذا هو الهاجس الذي كان يشغله في كل خطوة في الإصلاح لبناء المغرب الحديث، فالشباب كان دوما في مقدمة الاهتمامات لأنه العمود الفقري للأمة، فلا تنهض ولا يكون لها دور في المستقبل إلا بشبابها المثقف النشط الواعي بهموم وطنه وبحاجياته، والوعي ينمو بالتعليم الذي يرسم الأهداف والغايات بدقة، ويحرر الفكر من الجمود، ويكون الشخصية القادرة على تحمل الأعباء في جميع الظروف التي يجتازها الوطن، ومن هنا نجد الحسن الثاني رحمه الله يلح في كل مناسبة على أن ربط الشباب بوطنهم لا يكون إلا بالتعليم النافع والشغل الذي يحفظ كرامتهم، قال، رحمه الله، سنة 1998م بمناسبة ثورة الملك والشعب: "ولا زلت أقول وأكرر أن لنا ميدانين للاجتهاد والابتكار والتفكير والتحرير من القيود الموضوعة في الأذهان والأدمغة . المجال الأول: الذي هو منطلق كل شيء هو مجال التعليم. والمجال الثاني: هو بسط الكرامة على هذه الأرض المباركة، الكرامة لأبنائها، وذلك بتشغيلهم وإعطائهم العيش اللائق بهم".

إنها دعوات صريحة من أعلى قمة في هرم الدولة، فلماذا لم تتحقق هذه الرغبة الدفينة في فكر وقلب الحسن الثاني بالشكل الذي كان ينادي به في خطبه؟ هل مخطط إصلاح التعليم وتشغيل الشباب لم يكن مدروسا بطريقة علمية ومدققة؟ أم أن الظروف الاقتصادية والسياسية كانت وراء هذا التأخير؟ أسئلة كثيرة يطرحها الباحثون، لكن الذي لا يمكن الاختلاف فيه هو أن الهدف من إصلاح التعليم وتوفير الشغل لكل المتعلمين في مجال تخصصهم لم يتحقق بالطريقة التي كان يلح عليها الحسن الثاني رحمه الله مما جعل المغرب يعيش في المرحلة الراهنة أزمة تعليم وأزمة تشغيل. وإذا

كانت أزمة التشغيل تدخل فيها عوامل خارجية، منها الأزمة الاقتصادية التي تمر منها سائر الدول حتى المتقدمة والغنية على حد سواء فإننا لا ينبغي أن نشهد تراجعاً أو ركوداً في التعليم من الابتدائي إلى العالي، فهذا القطاع مرهون بجهودنا الذاتية، فالمربون والآباء والطلبة كلهم يتحملون المسؤولية عن تدني المستوى التعليمي وعزوف التلاميذ عن المدرسة والمعاهد.

والشيء الذي لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان أن التعليم والتشغيل هما لب المشاكل في العالم، فأنظمة التربية والتعليم تقتضي التجديد في كل فترة من الزمن تبعاً للتطور الذي تشهده الأمة في كل المجالات، فهما يمثلان وجه الأمة فكراً وثقافة وحضارة ونمطاً اجتماعياً وأخلاقياً. وكذلك معضلة التشغيل فإنها ترتبط بحركة المجتمع ونشاطه وبالتنمية الشاملة في كل الميادين، وكل هذا يكون وراءه - من أجل إنجاحه - تعليم هادف وموجه نحو الغايات المرسومة، ولذلك سيظل التعليم والتشغيل الشغل الشاغل لجميع الأمم في كل زمان. والمغرب لا يشذ عن هذه القاعدة، وهو البلد الذي يطمح دوماً للتخلص من كل مخلفات التخلف التي ورثها عن الاستعمار، وازدادت نتيجة الظروف الاقتصادية التي يعاني منها العالم. من هنا نجد الملك محمد السادس نصره الله منذ توليه العرش يعطي لهذا الملف الأسبقية في الاهتمام والعناية الفائقة، شعوراً منه بأن الأمة لا يمكن أن تسير النهضة ودخول الحداثة من بابها الأوسع بدون الاهتمام بالتعليم الذي ينير للأمة طريقها، وإيجاد الشغل الذي يحفظ للمواطنين كرامتهم ويجعلهم يشعرون بأنهم ينعمون بخيرات بلدهم. وإذا تتبعنا أقواله في المناسبات الوطنية وفي لقاءاته مع النخب الفكرية والسياسية فإننا نجد هذا الإحساس قوياً في خطبه مع الإشارة إلى وضع الآليات والوسائل التي تجعل تعليمنا محققاً للأهداف المرجوة منه والتخلص من آفة بطالة الشباب المثقف التي أصبحت ظاهرة لافتة للانتباه ومعضلة في نسيج المجتمع المغربي؛ ففي أول خطاب بمناسبة عيد العرش نجده يعد الشعب بأنه سينكب على دراسة ملف التعليم في ضوء مشروع ميثاق التربية والتكوين⁴، فقال: "إننا سننكب كذلك على ملف التعليم في ضوء مشروع الميثاق الذي أنجزته اللجنة الملكية الخاصة للتربية والتكوين، وبالعناية التي هو جدير بها لأهميته في إعداد النشء وتأهيل أجيال المستقبل".

4 - مشروع ميثاق التربية والتكوين وضعته لجنة من خبراء التربية والتعليم لإصلاح التعليم في المناهج والمقررات والأهداف التي ينبغي تحقيقها في زمن معين - عشر سنوات -، وكان الحسن الثاني، رحمه الله، هو الذي كلف هذه اللجنة بوضع هذا المشروع بعد الاطلاع على نماذج متعددة من تجارب الدول المتقدمة في هذا المجال.

فهذا يدل على أن قضية تعليم النشء وتأهيل الشباب كانت في مقدمة اهتماماته لاسيما أن مشروع ميثاق التربية والتكوين الذي أشار إليه كان قد وضع خطة للنهوض بالتعليم في جميع مستوياته وأسلاكه في مدة زمنية محددة، وكان على المسؤولين عن هذا القطاع العمل بما جاء في هذا الميثاق قصد تحقيق أهدافه.

وفي خطاب آخر نجده يوضح رؤيته لإصلاح التعليم بأكثر شمولية ودقة مما يبرهن على أن التعليم هو الجوهر واللب وراء كل تنمية وتجديد وحادثة، بل نجده في هذا الخطاب يلح على مراجعة المناهج والمقررات من أجل أن لا يظل التعليم مغلقا على نفسه وبعيدا عن سوق الشغل، وهذا التصور نجده في خطاب العرش لسنة 2003م حيث قال نصره الله: "واستشعارا للأهمية القصوى للتعليم النافع في تحرير العقول وترسيخ روح المواطنة لدى ناشئتنا، وتأهيلها لخوض تحديات التنمية والعولمة، ومجتمع المعرفة والاتصال، كانت مصادقتنا على الميثاق الوطني للتربية والتكوين أول القرارات الاستراتيجية التي اتخذناها، مبوئين تفعيله مكانة الأسبقية الثانية لهذه العشرية، بعد القضية المقدسة لوحدتنا الترابية.

وعلى الرغم من الخطوات الموفقة التي قطعناها في هذا الورش الحيوي الصعب، بعد مضي ثلاث سنوات على الشروع فيه، فإن غلبة الجانب الكمي فيها، وعدم الإقبال على ما يتطلبه الإصلاح العميق من قرارات جريئة وشجاعة تمس جوهر نظام التربية والتكوين يجعلنا نقول باسم الأمة كفى من نظام تعليمي ينتج البطالة والانغلاق"⁵

في هذا الكلام جرأة وشجاعة على مواصلة الخطوات لإصلاح التعليم وجعله يأخذ المرتبة الثانية بعد قضية وحدتنا الترابية، وفيه نقد لسير العملية التربوية على ضوء ما جاء في الميثاق الوطني للتربية والتكوين، ولا أدل على ذلك من قوله: "كفى من نظام تعليمي ينتج البطالة والانغلاق"، فهذا كلام قوي الدلالة على عزمه نصره الله لإصلاح قطاع التعليم الذي جعله بعد أهم قضية وطنية تشغل المغاربة كلهم.

هذا التصور الشمولي لإصلاح التعليم لم يستثن منه الرؤيا لمستقبل التعليم الجامعي والأهداف المطلوب تحقيقها منه، لكون التعليم العالي هو وجه الأمة الحضاري والفكري، وهو الذي يكون

النخبة التي تقود البلاد لطريق الحداثة والنهضة، وهو الذي يطور البحث العلمي والصناعة والتجارة، ولذلك يقول في الخطاب السابق الذكر: "ونظرا لأهمية الجوانب التربوية والثقافية في النهضة الشاملة فإننا نؤكد الدور الحيوي للجامعة وللنخبة الفكرية الوطنية في ترسيخ الحداثة باعتبارها قيمة مضافة لرصيدنا الحضاري".

حقا إن للمغرب رصيده الفكري والحضاري المتأصل منذ قرون عديدة، فهو البلد الذي تعاقبت عليه دول كان لها سبق في العلم والتعمير والبناء، لكن تطلعه للقيام بدوره في العصر الحديث على جميع المستويات يتطلب منه أن يواكب الحضارة الحديثة بكل ما أفرزت من علوم متطورة في كل التخصصات، وبخاصة التقنيات الدقيقة في عصر العولمة الذي لم يعد فيه للأمم المتخلفة مكان، إنه عصر تتسابق فيه جميع الأمم للجودة في التصنيع وتطوير المواصلات وتنشيط التجارة وتحسين الدخل الوطني والرفع من المستوى الاجتماعي والفكري للأفراد. والمغرب بلد كان منذ القديم مرتبطا بدول الشمال في التبادل التجاري والعلاقات السياسية والتطلع لاكتساب الخبرات على جميع المستويات، فكان يرسل البعثات الطلابية لتطلع على العلوم المتطورة في تلك البلدان، ولا يمكنه أن يظل في العصر الحديث بعيدا عما تنتجه تلك الدول في مجال الصناعة الدقيقة وفي البحوث العلمية والتقنية التي تتطور بشكل سريع، وهذا ما أكدته محمد السادس نصره الله في خطاب 20 غشت سنة 2004م بمناسبة ثورة الملك والشعب، فقال منبها المغاربة إلى ما قام به السلف من توضيحات في سبيل تحرير البلاد، وما ينبغي أن يقوم به الجيل الحاضر في مجال التنمية الشاملة لإخراج البلاد من كل مظاهر التخلف التي لا تليق ببلد عرف منذ القديم بالسعي لنيل العلوم والبراعة فيها: "بيد أن الوطنية التي تمثلت بالأساس بالنسبة لجيل التحرير، في مقاومة الاستعمار القديم، تقوم بالنسبة لأجيالنا المعاصرة على التعبئة الشاملة وتحرير الطاقات لمكافحة المعضلات الصعبة للأمية والفقر، وبطالة الشباب، واتساع التفاوتات الاجتماعية والمجالية، وكسب رهانات التحديث الديمقراطي، والرفع من مستوى التنمية البشرية والإنتاج الاقتصادي، والنهوض بالاجتهاد الفكري والإبداع الفني".

هذه نظرة متكاملة فيما ينبغي أن ينهج المغرب في المرحلة الراهنة في جميع الميادين التي تضعه في مصاف الدول المتقدمة، لكن هل وجدت هذه النداءات أذانا صاغية وقلوبا مفتوحة وعقولا نيرة وحماسا وطنيا صادقا من العاملين في كل وزارة وقطاع وجمعيات حقوقية ومدنية ونقابات من أجل

إخراجها للواقع وجعلها أثرا ملموسا؟ إن تحقيق هذه الرؤية ينبغي أن تتكاثف فيه جهود جميع المؤسسات ابتداء من الأسرة والمدرسة إلى الجهات الوصية، فالكل مطالب من موقعه وبما يملك من قدرات وخبرات ومهارات من أجل بذل الجهود الصادقة، والكل مطالب أيضا بأن يحاسب نفسه على ما قصر فيه وما ينبغي تداركه. هكذا كانت كل الأمم المتقدمة تسلك طريقها من أجل تحقيق التنمية الشاملة علميا واقتصاديا واجتماعيا، إن المشروعات الضخمة التي نراها في تلك الدول لم تتحقق بالأمان والائتمان والتملص من المسؤولية ونهب الثروات وعدم المحاسبة، وإنما كانت وراءها جهود صادقة في البذل والعطاء والتضحية.

تلکم هي النظرة الشمولية في إصلاح التعليم والعناية بالشباب التي تبناها ملوك المغرب منذ فجر الاستقلال وإلى المرحلة الراهنة، فما المطلوب من الشباب والمشرفين عليه من أجل جعل هذه الرؤى واقعا ملموسا، يسير على هديه المغرب آمنا من الاضطرابات التي أصبحت ظاهرة في كل البلدان التي تعاني من التخلف والفقر والأمية وبطالة الشباب وانعدام الديمقراطية؟

إن علماء الاجتماع والنفس والتربية لا يختلفون في كون الشباب هو عماد الأمة في كل مظهر من مظاهر تنميتها، فلا يتحقق تقدم شامل ولا تقوم نهضة فكرية واجتماعية واقتصادية بدون تكوين الشباب وتأهيله لاكتساب الخبرات والمهارات التي تتلاءم مع ميوله ومع العصر الذي يعيش فيه، والعناية به اجتماعيا ونفسيا وصحيا بدءا من الأسرة التي تحتضنه وإلى رحاب الجامعة التي تكون منه إطارا عاليا تستفيد منه البلاد، إن كل ما يوفر للشباب التكوين المتلائم مع رغباته في الجانب الفكري والرياضي والموسيقى والفني هو ما ينبغي أن يفكر فيه المسؤولون لتنمو عقول شبابنا وتستقر نفسياتهم وتحسن أخلاقهم. والأمم المتقدمة قد رصدت لهذا الفضاء ميزانية ضخمة وجهودا جبارة من جميع الأطراف التي يمكن أن تفيد في هذا المجال، والمغرب لا تنقصه الوسائل التي تعينه على تكوين شبابه وتأهيله في عصر العولمة مادية كانت أو معنوية، ونرى أن ما ينبغي توفيره لشبابنا هو الآتي:

أولاً: إن الشباب يمثل الفئة العمرية الأكثر عددا ونشاطا في الحواضر والبادي والجبال، وهذه النسبة تمثل ثروة للمغرب ينبغي استغلالها في كل المجالات التي تسهم في النهضة الفكرية وأوراش البناء وإصلاح الأراضي الفلاحية واستغلال المناجم التي يتوفر عليها المغرب. ومعروف أن بلدنا متنوع الثروات الطبيعية التي تستهوي الزوار بسهولها الممتدة، وصحرائها الشاسعة، وجبالها

الشاهقة، وأنهارها المتفرعة في كل جهة، وبحارها الغنية بالثروات السمكية. وهذا الغنى الطبيعي يوازيه غنى في المهارات الفائقة التي تتمثل في صناعته التقليدية المتميزة بالجودة والإتقان في كل جهات المغرب. كل هذا ينبغي أن يسهم فيه الشباب بتنميته وتطويره لاستفيد منه الأمة في دخلها الوطني لاسيما أن هذا المنتج مطلوب في الأسواق العالمية لجودته المعروفة ولموقع المغرب الاستراتيجي.

ثانيا: إن شباب المغرب معروف منذ القدم - حينما تنهياً له الظروف ويشعر بأن بلده في حاجة إليه - بتقديم التضحيات على جميع المستويات، فهذا الشباب هو الذي ناضل في مرحلة الاستعمار وحرر المغرب من الحماية، وهو الذي أسهم في الاستقلال وفي بناء البلد على جميع المستويات وبالمشاركة في البناء والتعمير والإصلاح، وطريق الوحدة التي أنجزت في بداية الاستقلال شاهدة على ما قدم الشباب من أعمال بدون أن يطلب أجرا أو امتيازا وكذلك المسيرة الخضراء التي أسهم فيها كل أفراد الأمة، إذ كان الشعور الوطني يدفع الجميع لتقديم التضحيات مهما كانت المشاق والأهوال التي تعترض طريقهم، فلو شعر شباب المغرب في المرحلة الراهنة أن خيرات بلادهم توزع بالتساوي بين جميع المواطنين ولا تستحوذ عليها فئة معينة لقدموا الكثير من التضحيات التي لا تخطر على بال أحد بدون أن يطلبوا جزاء.

ثالثا: إن للشباب فضاءه المعروف ومجاله الواسع، وهو المعاهد والجامعات والنوادي الرياضية والفنية، فينبغي على المسؤولين أن يعملوا على إيجاد كل ما تحتاجه من أطر ومعدات حتى يجد الشباب فيها ما يلائم نفسيته وعقله وطموحه؛ إن عددا كبيرا من شباب المغرب أصبح يهجر هذه الفضاءات ويرتمي في أحضان المقاهي لضياح الوقت أو في أماكن الخمر والمخدرات والقمار، وهي ظاهرة أصبحت لافتة للانتباه في المجتمع المغربي، ونتائجها السلبية انعكست على الأسر والمؤسسات التعليمية وعلى الوضع الاجتماعي عامة. ينبغي للمسؤولين أن ينتبهوا لهذا الخطر الذي يهدد شباب المغرب، إن أكثر نزلاء السجون المغربية هم من فئة الشباب، والدوافع التي جعلتهم يرتمون في أحضان الجريمة هي الفقر والجهل وغياب الوعي وانعدام الشغل، كما أن المسؤولين يعلمون أن أكثر الذين يموتون غرقا في البحر هم الشباب الذين يحاولون الفرار إلى أوروبا، والكثير منهم إذا نجا من الموت لا يجد هناك إلا سرابا خادعا. إن تهبيء فرص التعلم والتكوين والشغل في بلدهم هو الطريق الذي يجعلهم يلتحمون بوطنهم ويسهمون في بنائه كما فعل شباب التحرير.

رابعاً : إن التفكير في ملء أوقات فراغ الشباب ليعد من الضروريات التي ينبغي التفكير فيها من طرف الآباء والمسؤولين، فهذا الوقت - إذا أحسن استغلاله - قد يصنع شخصية الشباب ويوجههم الوجهة السليمة نفسياً وتربوياً وأخلاقياً، والأمم المتقدمة تفكر في هذا الوقت أكثر مما تفكر في أوقات العمل لأهميته في حفظ الشباب من الانحراف والضياع، فلذلك تجدها تحت الشباب على الاندماج في المؤسسات الرياضية والفنية والجمعيات الحقوقية والمدنية، وتوفر لهم كل ما يحتاجون إليه في هذه المراكز مع خلق الحوافز والتشجيعات المادية والمعنوية.

خامساً : إن دور الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب لا يقل أهمية في هذا الجانب وذلك بتربية الشباب على المواطنة السليمة التي تجعل حب الوطن والحفاظ على أصالته وتراثه فوق كل اعتبار، ومحاربة كل ما يؤثر على أجسامهم وعقولهم ونفسياتهم.

سادساً : فتح قنوات الحوار الجاد مع الشباب وبخاصة الشباب المثقف، فهذه الفئة من الشباب على درجة عالية من الوعي لإنجاح الحوار الجاد وتحمل المسؤولية وفهم الظروف التي يجتازها البلد على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ومطالب الشباب في الحصول على الشغل مشروعة ينبغي مناقشتها بعقلانية وموضوعية، كما ينبغي تجنب كل ما يقع فيه الشباب بعد حصولهم على الشغل ولا سيما حينما يجدون أنفسهم يحشرون في أعمال لا تلائم كفاءاتهم العلمية وقدراتهم العقلية وخبراتهم، ومثل هذا يسبب لهم إحباطاً نفسياً فيكون رد فعلهم سلبياً على مستوى العطاء والإنتاج .

سابعاً : إن العالم يعاني من معضلة عزوف الشباب عن القراءة، وهذه الظاهرة تترك نتائج سلبية على جميع المستويات، إذ لا يقتصر أثرها على الثقافة والفكر فحسب وإنما تؤثر أيضاً في التنمية. وقد قرأت مؤخراً أن دولة أستراليا أجرت إحصاء سنة 2010م، شمل جميع المواطنين حول مهارات القراءة فوجدت حوالي 46 في المئة لا يجيدون المهارات الأساسية للقراءة، فقررت أن تجعل سنة 2012م سنة كاملة للتشجيع على القراءة ودعم الكتاب وتوعية المواطنين بفوائد القراءة. فهذه التجربة تدل على الشعور بما تخلفه ظاهرة العزوف عن القراءة من أثر على اقتصاد البلاد ووضعها الاجتماعي وسمعتها العلمية. وأكثر شباب المغرب يعاني من هذه المشكلة، فعلى المسؤولين التفكير في هذا الأمر بواقعية وجدية وبخاصة وزارات الثقافة والأوقاف والشبيبة والرياضة والأسرة والتضامن، وكذلك الجامعات والمؤسسات والمعاهد والجمعيات الثقافية والنخب الفكرية، فكل هذه الجهات مطالبة بتشجيع الشباب على القراءة وتوفير الكتاب بين يدهم، وتأسيس الخزانات في سائر المدن والقيام

بالأنشطة الفكرية في مختلف الموضوعات والقضايا التي تلائم فكر الشباب وطموحاته والقضايا الراهنة.

إن التفكير في كل ما يعين على تكوين شباب متنور مسؤولة يتحملها الجميع في هذا الظرف العصيب الذي يعاني منه المغرب من الأمية والانقطاع المبكر عن الدراسة، فهذه الظاهرة تفرز بطالة الشباب وازدياد أطفال الشوارع وانتشار الجرائم والمخدرات، وغيرها من الظواهر السلبية التي تعمق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية. إن الشباب المغربي في حاجة اليوم أن يرى من المسؤولين النموذج الأمثل الذي يقتدون به في عملهم وتضحياتهم وحبهم لوطنهم، إنه في حاجة أن يرى من كل من يقود سفينة هذا البلد روح المواطنة الصادقة، والإخلاص في العمل، وتقديم المصلحة العامة، ومحاسبة من يسيء لهذا الوطن مهما كانت مكانته في المجتمع.

الدبلوماسية الدينية المغربية ونشدان تحقيق الأمن الروحي في المغرب والبلدان الإفريقية

ذة. أمينة مزينة

باحثة بفاس

كثيرا ما يتبادر للذهن قول الرسول الكريم حيننا وقدوتنا عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم "من أصبح مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا"¹، خاصة مع كل ما تعرفه مناطق عديدة من العالم من فوضى عارمة وغلان لا يكاد يفتر نتيجة الصراعات السياسية والاقتصادية، وانتشار الحقد والكراهية، وتعالى خطابات الغلو والتشدد مما استدعى تكثيف الجهود لحماية المجتمعات وتحصينها من الأخطار القادمة من وراء الحدود وتجفيف منابع الإرهاب والتطرف.

فالحديث النبوي الشريف يقدم خارطة تحقيق الأمان والاستقرار، وذلك من خلال استتباب الأمن الروحي والمعيشي والصحي والغذائي والاجتماعي وبالتالي السلم المدني، ومن ثم فإن المجتمعات المسلمة اليوم تحتاج إلى إعادة النظر والتفكير في فهم النصوص القرآنية والسنة النبوية المشرفة، وذلك بإعادة قراءتها قراءة تمكن من استشفاف واستحضار المعاني والمقاصد الشرعية التي لا شك خادمة لكل المستجدات ومحدثات الأمور التي تطرأ والتي قد تطرأ مستقبلا، وذلك على جميع الأصعدة، وفي جميع الميادين باعتبار أن الدين يشمل جوانب عدة، الفردي والمجتمعي والاقتصادي والسياسي والأمني والفكري والديني الروحي وغيرها.

1 - أخرجه البخاري في الأدب المفرد باب من أصبح آمنا في سربه الحديث رقم: 300، وأخرجه بن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة الحديث رقم: 4141، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الفقر والزهد والقناعة، ذكر الإخبار عن طيب الله جل وعلا عيشه في هذه الدنيا، الحديث رقم: 671، وغيرهم.

ولما كان الدين عاملا مهما في تحقيق الأمن الروحي، وكان تقريبه وتيسيره للناس وتنقيحه مما قد يشوبه من غلو وتشدد ضرورة لا غنى عنها، كانت الحاجة ملحة أكثر من أي وقت مضى لتكثيف الجهود من أجل دحض التيارات الضالة والمضلة، والأفكار الهادمة والهدامة التي تحض على الكراهية والتطرف والعنف، لذا فإن للدبلوماسية الدينية المغربية دور كبير في هذا الجانب، إذ عرفت حركية دؤوبة نحو البلدان الإفريقية الشقيقة والصديقة المتمثلة في توالي الزيارات الملكية لها في إطار التعاون جنوب جنوب المبني على الوعي المشترك، وعلى قدرة دول القارة السمراء على تطوير نفسها بنفسها والاعتماد على إمكانياتها الخاصة لتستدرك تأخرها عن ركب الحضارة، وذلك من خلال مجموعة من المبادرات والبرامج والاتفاقيات، لماذا إذن نجحت التجربة الدينية المغربية وما هي تمثيلات هذا النجاح؟ وكيف استطاعت كدبلوماسية موازية سلسلة وهادئة من النفوذ لتخوم إفريقيا وتقديم خلاصة سنوات من العمل الدؤوب في هذا الجانب؟ وكيف أسهمت في تعزيز الأمن الروحي؟.

أولا - المهارة الدبلوماسية الدينية المغربية ودورها في صناعة الأمن الروحي المتجاوز للحيز المكاني والزمني:

إن ما يتميز به المغرب في المجال الديني، كنموذج متفرد يعتمد الوسطية والاعتدال وإشاعة قيم التسامح والتعايش بين الشعوب والحضارات، جعله يتبوأ مكانة خاصة ومتميزة بين دول العالم يسعى العديد منها للنهل والاستفادة منه، وقد تضافرت عدة عوامل في بلوغه تلك المكانة، أهمها:

أ - مؤسسة إمارة المؤمنين ضمان لنجاح التجربة الدينية المغربية:

من المعلوم أن إقامة الشريعة وتنزيل أحكامها "لا يتم إلا عبر خطط شرعية وولايات دينية - كالقضاء والفتيا والحسبة والمظالم ... وغيرها-، وبالنظر في كيفية تثبيت تلك الخطط والولايات يتضح جليا أن كل ذلك يستند إلى إمارة المؤمنين، لأن أمير المؤمنين هو الإمام الأعظم وهو القاضي وهو المفتي وهذه الخطط تستحدث بأمر وتفويض منه لأنه هو الأصل فيها، جاء في مقدمة ابن خلدون: "فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء ... كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة، وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم"²، فإمارة المؤمنين هي الأصل في الولايات الدينية والخطط الشرعية اللازمة

2 - مقدمة ابن خلدون 192/1.

لا استمرار الدين ومقاصده³، لأنها الضامن لتحقيق الأمن الروحي وصيانة المجتمع المغربي من الفرقة والاختلاف، والمحافظة على الثوابت والخصوصيات الدينية القائمة على المذهب المالكي والتصوف السني والعقيدة الأشعرية، وبالتالي السهر على تحصينه من كل ما من شأنه أن يؤدي به لانزلاقات مذهبية وانحرافات سلوكية، من أجل ذلك حرص أمير المؤمنين رعاه الله على تنزيل كل ذلك على أرض الواقع من خلال العديد من الإجراءات، اتسمت بالفاعلية والفعالية والشمولية⁴، ويعلم ذلك من خلال تمثل هندسة محكمة متكاملة ذات أبعاد متعددة منها: التأكيد على سياسة القرب في الشأن الديني من خلال الوعظ والإرشاد المستند للأصول المعمول بها في المذهب المالكي، ومن خلال الفتيا فيما يستجد في المجتمع من أفضية ونوازل، دون استثناء الجالية المغربية من الاستفادة من هذه التدابير، وهذه مهام وظيفية أسندت للمجالس العلمية المحلية والمجلس العلمي الأعلى الذي يترأسه أمير المؤمنين، باعتبار أن هذه المجالس هي "الملاذ الذين يفرح إليهم الناس لمعرفة شؤون دينهم، وعبّ الحكمة لمواجهة شؤون دنياهم"⁵، صيانة للحقل الديني من المتطاولين عليه الخارجين عن الإطار الشرعي المؤسسي، وهذا ما جاء متضمنا في خطاب أمير المؤمنين بقوله: "أسندنا إلى المجلس العلمي الأعلى اقتراح الفتوى على جلالتنا، بصفتنا أميرا للمؤمنين ورئيسا لهذا المجلس، فيما يتعلق بالنوازل الدينية، سدا للذرائع، وقطعا لدابر الفتنة والبلبل، مؤكداً أن توسيعنا وتجديدنا للمجالس العلمية، لا يعادله إلا حرصنا على ألا تكون جزرا مهجورة من لدن العلماء غير الأعضاء بها، بل نريدها ملتقى لكل العلماء المتنورين⁶، وهناك كذلك التكوين المستمر والدائم للقيمين الدينين من أئمة ووعاظ ومرشدين، والشامل لكل مساجد المملكة وفق برامج محددة تواكب أحوال المجتمع ومستجدات العصر، وفق خطة ميثاق العلماء.

3 - انظر مقال د. عبد الرزاق وورقية "إمارة المؤمنين حفظ الدين والدنيا" دعوة الحق عدد: 405 السنة السادسة والخمسون، رمضان 1434هـ/يوليوز 2013م، ص: 53.

4 - انظر خطاب أمير المؤمنين محمد السادس في حفل تنصيب المجلس العلمي الأعلى والمجالس الإقليمية بتطوان بتاريخ 18 رمضان 1424هـ- الموافق 15 دجنبر 2000م، والخطاب السامي لجلالته في 29 ماي 2003م، بالدار البيضاء، وخطاب جلالته حول إعادة هيكلة الحقل الديني بالقصر الملكي بالدار البيضاء 30 في أبريل 2004م. الخطاب الملكي بمناسبة عيد العرش بتاريخ 30 يوليوز 2000م، الخطاب الملكي بمناسبة الذكرى 47 لثورة الملك والشعب 20 غشت 2000م، خطاب أمير المؤمنين بمناسبة افتتاح الدورة الأولى للمجلس الأعلى بمدينة فاس في فاتح جمادى الثانية 1426هـ- الموافق 08 يوليوز 2005م، وخطاب جلالته بمناسبة انعقاد الدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى لسنة 2009م.

5 - "جامعة القرويين بين الأمس والغد"، الدكتور أحمد عبادي، أسبوعية منبر الرابطة، افتتاحية العدد 26، 11 ماي 2011م.

6 - خطاب أمير المؤمنين محمد السادس حول إعادة هيكلة الحقل الديني بالقصر الملكي بالدار البيضاء 30 أبريل 2004م.

إضافة إلى العناية المولوية بالبعد التعليمي المتمثل في إعادة تنظيم جامعة القرويين وجعل كل المؤسسات الخادمة للشأن الديني منضوية تحتها، مع الاهتمام بالتعليم العتيق وجعله مواكبا لتطور العصر وجعله منفتحا على الواقع بسياقاته المتعددة، جاء في خطابه حفظه الله "حرصنا على تأهيل المدارس العتيقة، وصيانة تحفيظ القرآن الكريم، وتحسينها من كل استغلال أو انحراف يمس بالهوية المغربية، مع توفير مسالك وبرامج للتكوين، تدمج طلبتها في المنظومة التربوية الوطنية، وتجنب تخريج الفكر المغلق، وتشجيع الانفتاح على الثقافات"⁷.

إضافة لما سبق، هناك كذلك إحياء دور الرابطة المحمدية للعلماء التي انصب اهتمامها على دراسة المجتمع من خلال تحليل المعطيات ودراساتها وفهم السياقات وتفكيك الخطابات، والتي تشتغل على عدة قضايا راهنة من خلال إحدى وعشرين وحدة بحثية متخصصة في العلوم الإسلامية وكذا السياقية المتمثلة في وحدة لمكافحة التطرف العنيف، وإعطاء البدائل في هذا الجانب، وكذا وحدة لمكافحة السلوكيات الخطرة والعديد من المظاهر المتفشية في المجتمع، وهذا ما تضمنه خطاب جلالة بقوله: "أبينا إلا أن يشمل إصلاحنا رابطة علماء المغرب، لإخراجها من سباتها العميق، وإحيائها بشكل يجعل منها جهازا متفاعلا مع المجالس العلمية، وذلك بإصدار ظهير شريف لتنظيمها وتركيبها في إطار يحمل اسمنا الشريف، بحيث نطلق عليها اسم الرابطة المحمدية لعلماء المغرب، مكونة من العلماء الموقرين الذين يحظون بسامي رضانا وعطفنا"⁸.

لقد أسهمت هذه الإجراءات وغيرها في جعل التجربة الدينية المغربية تجربة رائدة يحتذى بها، تجربة استطاعت - في ظل تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة -، التحصين من الانجراف مع التيارات ذات الإيديولوجيات المتشددة أو الداعية إلى العنف والتطرف والمهددة للهوية العقدية، فتجاوزت بذلك الحدود السياسية للمغرب للعبور لبلدان جنوب الصحراء وتقديم العون والنصح لها وإفادتها.

ب - الحكامة في تدبير الشأن الديني المغربي أسهم في تحصين المجتمعات الإفريقية من الغلو والتطرف:

إن الامتداد الروحي للمغرب في إفريقيا يعود لعدة قرون خلت، مستندا إلى جملة أمور منها: "الاشتراك في العقد الأشعري الذي يجعلنا جميعا لا نقبل التكفير وبالتالي لا نقبل دعاوى الإرهاب

7 - نفسه.

8 - خطاب أمير المؤمنين محمد السادس حول إعادة هيكلة الحقل الديني بالقصر الملكي بالدار البيضاء 30 أبريل 2004م.

التي يراد ربطها بالدين، والاشتراك في المذهب المالكي في فقه العبادات والمعاملات، وله مزايا تناسب بيئتنا الإفريقية، والاشتراك في بناء الشخصية الروحية المتمثلة في أسانيد الطرق الشاذلية والقادرية والتجانية، والاشتراك في الإجازات والأسانيد التي تربط علماء المغرب بعلماء بعض بلدان إفريقيا⁹، وهذه ثوابت ومرتكزات شكلت أرضية صلبة كانت خادمة لنجاح التجربة الدبلوماسية الدينية المغربية تجاه البلدان الإفريقية.

ومن جهة أخرى برزت توجهات جديدة في الدبلوماسية المغربية، اعتمدت على تأطير ومأسسة الشأن الديني منها: الاستجابة للطلبات المتعلقة بتكوين الأئمة والوعاظ القيمين الدينيين من أئمة ووعاظ ومرشدين بالمغرب المنحدرين من الدول الإفريقية، كتونس ومالي وغينيا كوناكري والكويت ديفوار، وإحداث رابطة علماء المغرب والسنغال، وإحداث معهد الدراسات الإفريقية، وتنظيم العديد من المحافل العلمية من ندوات وملتقيات في إطار تبادل زيارة العلماء للإفادة والاستفادة، ليتوج هذا التعاون بإنشاء مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة التي تشكل لبنة أخرى تروم توحيد جهود علماء المغرب وباقي البلدان الإفريقية لخدمة كل ما يخص الشأن الديني وتحصينه ضد التيارات المتطرفة وحماية العقيدة الإسلامية السمحة والوحدة الروحية للشعوب الإفريقية لمحاصرة التطرف الديني ونشر الوسطية في المناطق الإفريقية التي يتهدها الإرهاب والتشدد الديني وتجهيف منابعه، إضافة إلى الإسهام في بناء المساجد في العديد منها كبناء مسجد محمد السادس في مدينة أبيدجان عاصمة كوتيفوار، ويشمل مركبا يتكون من قاعة صلاة للرجال والنساء ومكتبة، ومدرسة قرآنية، بالإضافة إلى إهداء عشرات الآلاف من نسخ المصحف المحمدي الشريف، وقد خلف بناء هذا المسجد ردود فعل جد إيجابية في أوساط الإيفواريين، لما له من دور في نشر قيم السلام والتسامح والتضامن التي يدعو إليها الإسلام، وبالتالي مكافحة كل أشكال التطرف والغلو والالتزام بإسلام وسطي معتدل.

ثانيا - مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة نموذج للتميز والتمكن في الأداء الدبلوماسي الديني المغربي وآلية ناجعة لتعزيز الأمن الروحي:

من المعلوم أن التدين الصحيح القائم على الأصول الشرعية الثابتة أسهم في بناء نموذج مغربي محصن عن التطرف والغلو وبعيد عن الأهواء المتفرقة والأفكار الهدامة، فتحققت بفضل ذلك

9 - كلمة السيد وزير الأوقاف بمناسبة حفل تنصيب أعضاء المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، الذي ترأسه أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله بمسجد القرويين بفاس، يوم الثلاثاء 08 رمضان 1437 هـ (14 يونيو 2016 م).

موجبات إثبات الذات، وضمان تدين أمثل يحتذى به، ولعل الحديث عن كل ذلك لا يستقيم إلا ببسط الكلام عن مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة¹⁰، إحدى أبرز المؤسسات التي أفرزها الحراك المغربي اتجاه البلدان جنوب الصحراء رغبة من الدبلوماسية الدينية المغربية- الموازية لباقي الدبلوماسية- في التعاون من أجل بناء قارة قوية قادرة على تطوير نفسها بنفسها، والاعتماد على إمكاناتها الخاصة دون انتظار إعانات من أي جهة كانت لتستدرك تأخرها عن ركب الحضارة، والتمكن من العيش الآمن البعيد عن كل أنواع الصراعات.

إن عناية أمير المؤمنين بالمشهد الديني يتجسد جليا من خلال العديد من الأنشطة التي حظيت بها العديد من بلدان القارة الإفريقية رغبة في النهوض والارتقاء بها، لتتوج بإحداث مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة التي تهدف إلى التعاون وتبادل التجارب و"توحيد وتنسيق جهود العلماء المسلمين بكل من المغرب وباقي الدول الإفريقية، للقيام بواجبهم في التعريف بالصورة الحقيقية للدين الإسلامي الخفيف، وبقيمه السمحة القائمة على الاعتدال والتسامح والتعايش ونشرها"¹¹، هذا إلى جانب "التشجيع على إقامة المراكز والمؤسسات الدينية والعلمية والثقافية"¹².

وقد اعتبر جلالة الملك أن قرار إحداث هذه المؤسسة، "ليس نتاج ظرفية طارئة، ولا يهدف لتحقيق مصالح ضيقة أو عابرة، وإنما يندرج في إطار منظور متكامل، للتعاون البناء والتجاوب الملموس مع مطالب عدد من البلدان الإفريقية الشقيقة، على الصعيدين الرسمي والشعبي، في المجال الديني"¹³.

كما عبر جلالته عن ثقته "بأن هذه المؤسسة، بمختلف فروعها في البلدان الإفريقية، ستقوم إلى جانب كل الهيآت الدينية المعنية، بدورها في إشاعة الفكر الديني المتنور، ومواجهة ما يروج له بعض أدعياء الدين، من نزوعات التطرف والانغلاق والإرهاب باسم الإسلام وهو منها براء"¹⁴.

10 - انظر الظهير الشريف رقم 1.16.81 صادر في 16 رمضان 1437 (22 يونيو 2015) المتعلق بإحداث مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة... الجريدة الرسمية عدد: 6513 السنة الخامسة بعد المائة 29 محرم 1438 هـ (31 أكتوبر 2016 م).

11 - ظهير شريف رقم 1.15.75 صادر في 7 رمضان 1436 هـ (24 يونيو 2015) المتعلق بإحداث مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

12 - المرجع السابق.

13 - الخطاب السامي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس، بمناسبة ترؤس جلالته، يوم الثلاثاء 14 يونيو 2016 م، بجامعة القرويين بفاس حفل تنصيب أعضاء المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

14 - المرجع السابق.

ويؤكد كذلك على أنها "مبادرة تجسد عمق الأواصر الروحية العريقة، التي ظلت تربط الشعوب الإفريقية جنوب الصحراء بملك المغرب أمير المؤمنين، ولما يجمعنا بها من وحدة العقيدة والمذهب والتراث الحضاري المشترك، كما نعتبرها لبنة إضافية، تعزز توجهنا الاستراتيجي، للارتقاء بعلاقات التعاون السياسي والاقتصادي، التي تجمع المغرب بعدد من الدول الإفريقية الشقيقة، إلى شراكة تضامنية فعالة، في مختلف المجالات"¹⁵.

وتشكل مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة فضاء لبذل الاجتهاد المطلوب للاستفادة - وبالقدر الممكن - من نموذج تدبير الشأن الديني الذي شيده أمير المؤمنين، في جانبه الفكري والتأطيري والخدمي، وقد أجهل الدكتور أحمد التوفيق وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية هذه الخطة الدينية وغيرها في الكلمة التي ألقاها أمام جلالة الملك بمناسبة تأسيس مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة حيث قال: "إن التوجه الإفريقي لسياسة جلالتك الشريفة، لا تمليه سياسة تعاونية عادية عابرة، تنحصر في مبادلة البضائع والمصالح، بل هو توجه متعدد الأبعاد، يستمد تميزه من الأواصر الجغرافية، والروابط التاريخية، والأسانيد العلمية، والمسالك الروحية، والاشترك بين المغرب وعدد من بلدان إفريقيا في الثوابت الدينية العقدية والمذهبية... لقد ابتكرتم يا مولاي، هذه الآلية قبل كل شيء، بقصد نيل رضا الله في القيام بالأمانة الموضوعة على عاتقكم كحام للملة والدين، وكراعٍ للتاريخ الروحي المشترك بين المغرب وإفريقيا، وكغيور على الأمن والاستقرار في المنطقة"¹⁶، كما بين امتداد هذه الشراكة بين الجانبين في ميادين عدة منها:

- تنظيم التعليم الديني: بجعله حاملا لقيم السلام والرقى بالإنسان لنفع نفسه وخدمة وطنه وإسداء الخير للناس كافة، وعدم تسخيرها لأغراض الكراهية والمصالح المفسدة.

- التعاون بين طرق التصوف وبين هيآت العلماء، وذلك لأن إكراهات الوقت الحاضر تقتضي أن يكون للعلماء هيآت يتحملون فيها مسؤوليتهم كعلماء، وأن يكونوا مرجعية بتلك الصفة، على أن يوجهوا الناس للتخلي بأخلاق مدارس التزكية، ويتنفعوا في تقوية الوازع بها يغرسه الشيوخ في النفوس من أحوال التواضع وسلوك الانضباط.

15- المرجع السابق.

16 - كلمة السيد وزير الأوقاف بمناسبة حفل تنصيب أعضاء المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، الذي ترأسه أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله بمسجد القرويين بفاس، يوم الثلاثاء 08 رمضان 1437هـ (14 يونيو 2016م).

- تدبير الخدمات الدينية، ولا سيما ما يتعلق منها بالمساجد وتأطيرها، بعيدا عن التأثير بأهداف مذهبية أو سياسية.

- الإعانة على إقامة الأوقاف المدرة للدخل من أجل ضمان التمويل المحلي الذاتي للحاجيات الدينية التي هي حاجيات اجتماعية.

- تقوية جانب الإعلام الديني، في عصر تكنولوجيا التواصل، وما يعنيه من ضرورة إشاعة الكلمة الطيبة والحكم الشرعي الصحيح.

- التعاون في تكوين القيمين الدينيين، على غرار ما يتم في معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين.

- التعاون في تكوين أجيال جديدة من العلماء، ويتزامن هذا التصور مع الإصلاح المهم الذي أمرت به جلالته على صعيد جامعة القرويين¹⁷.

ثالثا - تصدير التجربة الدينية المغربية للمجتمعات الإفريقية وإسهامها في تحصينها من الغلو والتطرف:

أثر الإشعاع الديني والتجديد الروحي المغربي في ترسيخ مجموعة من القيم الحضارية والثقافية والفكرية بين شعوب منطقة الساحل والصحراء وإفريقيا الغربية عامة، لذلك يصعب الحديث عن تاريخ الإسلام بالغرب الإفريقي دون استحضار إسهامات رجال الأخلاق المغاربة ودورهم الفعال في ترسيخ قيم الدين الإسلامي السمح والنقي بهذه الربوع من العالم الإسلامي، وهذا ما أبرزته الرسالة الملكية الموجهة إلى المشاركين في الاجتماع العام للطريقة التيجانية المنعقد بمدينة فاس يوم 27 يونيو 2007م، والتي جاء فيها: "تاريخ الإسلام بإفريقيا، ولا سيما في بلدانها جنوبي الصحراء، يؤكد أن هذا الدين لم ينتشر إلا بفضل مشايخ الطرق الصوفية والتجار المسلمين المغاربة الأتقياء، والدعاة بالتي هي أحسن إلى مكارم الأخلاق".

لقد حرص ملوك المغرب -عبر التاريخ- على مواصلة رعاية المنتسبين إلى الطرق الصوفية بهذه البقاع والعناية بهم، وذلك من خلال العمل على الحفاظ والارتقاء بالرابطة الروحية والتعاقد الوجداني الذي يجمع سكان هذه المجتمعات الإفريقية بمؤسسة إمارة المؤمنين، وفي هذا الصدد يقول

17 - المرجع السابق.

جلالة الملك في الرسالة الملكية السالفة الذكر: "بوصفنا أميرا للمؤمنين، وحاميا لحمى الملة والدين، فإننا متمسكون بالحفاظ على هذه الرعاية لكم، والارتقاء بها إلى ما تستحقه من سابغ العناية، حريصين على ترسيخ الروابط الروحية والأخوية بين بلدانكم الشقيقة، وقيادتها الحكيمة وبين المغرب، لا نبتغي من ذلك سوى تحصين الإسلام السني السمح، النقي من البدع الضالة، ومن التطرف الأعمى، والتأسيس المغرض".

وفي استطلاع أجراه الباحث السنغالي "بكارى سامبي" - وهو من المختصين في العلاقات المغربية الإفريقية بشكل عام والمغربية السنغالية على وجه الخصوص - المنشور في كتابه: "الإسلام والدبلوماسية: السياسة الإفريقية للمغرب Islame et diplomatie: la politique africaine du Maroc"، أكد: "أن الناس في السنغال يعتبرون ملوك المغرب حماة العقيدة الإسلامية"¹⁸، مضيفا: "الناس بهذه البلاد (يقصد السنغال) تربطهم علاقات قوية بملوك المغرب"¹⁹، واستدل الباحث على قوله بقوله "بالاستقبال الكبير الذي حظي به جلالة الملك محمد السادس أثناء قيامه بجولة إفريقية حيث خصص له أعيان وعلماء وشيوخ الطرق الصوفية بالسنغال استقبالا عظيما يليق بمقام أمير المؤمنين"²⁰.

أ- الحضور القوي للبعد الديني والروحي في العلاقات المغربية الإفريقية عامل أساس في استمرارها:

يعد البعد الديني والروحي والرصيد التاريخي للمغرب، إضافة إلى موقعه الاستراتيجي عوامل متحركة في علاقات المغرب بدول القارة السمراء عموما ودول الغرب الإفريقي خاصة، من هنا كان لزاما في الوقت الراهن التساؤل عن طبيعة الدور الاستشراقي الذي يفترض أن يضطلع به المغرب في محيطه الأوروبي - متوسطي وإفريقي، وكيف يمكن للمملكة أن تسهم في ترسيخ قيم السلم والتسامح والتعايش في محيطها الإفريقي، ورفع التحديات والأخطار التي تهدد القارة السمراء.

18 - ينظر مقدمة كتاب: (Islam et diplomatie: la politique africaine du Maroc) "الإسلام والدبلوماسية: السياسة الإفريقية للمغرب"، بكارى سامبي، دار النشر مرسوم، الرباط، الطبعة الأولى 2010م.

19 - المصدر نفسه

20 - المصدر نفسه

إن مستقبل العلاقات المغربية الإفريقية في ارتباطه بالعامل الديني، - في ظل التحولات التي تشهدها المنطقة بعد تنامي التطرف بشتى أشكاله - كفيل بتوجهه إلى صياغة رؤية دينية متجددة تعمل على استحضار الإكراهات والتحديات التي تفرضها السياقات الإقليمية والدولية، مما يجعل المغرب يستأنف عملية ترسيخ ممارسته الدينية السليمة المبنية على الوسطية والاعتدال، وتنزيل توابثه واختياراته الدينية القائمة على وحدة المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني، مع العمل على استثمار مقوماته وإمكاناته الذاتية بما فيها الإشعاع الروحي للمغرب في محيطه الإقليمي، والنهوض بدوره الريادي والمحوري الذي يؤهله له رصيده الحضاري المؤسس على مجموعة من الدعامات الأساسية والتي على رأسها مؤسسة إمارة المؤمنين الضامنة للأمن الروحي واستمرار الأمة المغربية ونهضتها، وكذا العطاء الروحي الحي والمتجدد الذي تنعم به بلادنا.

ب - التسامح الديني المغربي عامل رئيس في ترسيخ قيم السلم والاستقرار في الدول الإفريقية:

شكل التسامح الديني قيمة أساسية وعنصرا بارزا في تكوين الشخصية المغربية، ومعلما سلوكيا أصيلا في المجتمع المغربي، بل هو من القيم الرئيسة التي تأسست عليها الدولة المغربية، وفي هذا الصدد أكدت الرسالة الملكية الموجهة إلى المشاركين في الندوة التي نُظمت بمناسبة اليوم الوطني للدبلوماسية المغربية، والمنعقدة بالرباط يوم 28 أبريل 2000م، إلى ضرورة استثمار فضيلة التسامح الديني لنشر رسالة المغرب الحضارية حيث قال جلالة الملك حفظه الله: "على دبلوماسيته اليوم أن تتجند من أجل استثمار الصورة الجديدة التي رسخناها لدى الرأي العام الدولي لمغرب ديمقراطي وحداثي ملتف حول عاهله ومنازة للاعتدال والتسامح"²¹، والمتبع لمسار العلاقات الدبلوماسية المغربية الإفريقية اليوم سيقف على الدور البارز والفعال الذي تضطلع به الدبلوماسية الملكية، ولا أدل على ذلك الجولات التي يقوم بها جلالة الملك بعدد من الدول الإفريقية الصديقة التي تربطها بالمغرب علاقات تاريخية عريقة، وآخرها الزيارة الملكية إلى مالي في شتنبر 2013م لحضور حفل تنصيب الرئيس المالي إبراهيم بوكار كيتا، وهي الزيارة التي التقى من خلالها أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس بعدد من قادة الدول الإفريقية وبشيوخ الطرق الصوفية بإفريقيا الذين جددوا بيعتهم وتعلقهم الوثيق بمؤسسة إمارة المؤمنين، ليتوج هذا اللقاء باتفاق يلتزم فيه المغرب بتكوين مجموعة من الأئمة والمرشدين الدينيين الماليين بالمغرب.

21 - خطاب أمير المؤمنين بالقصر الملكي بطنجة في يوم 21 محرم الحرام 1421هـ الموافق 26 أبريل 2000 م.

وهذا ما دفع بالدبلوماسية المغربية الأستاذ عبد الهادي التازي إلى القول: "كان المغرب حاضرا مع إفريقيا في سرائها وضرائها، وعمل دوما على تعزيز وحدتها وتقوية صفها، الأمر الذي أدركته واقتنعت به تلك الدول فعدت تتقاطر على المغرب تعقد لها به مؤتمرات ولقاءات..."²²، فأصبح من الضروري على المغرب وخاصة في الوقت الراهن الذي يشهد مجموعة من التحولات السياسية المبنية على اختلاف المصالح والبحث عن شركاء جدد في محيطه الإقليمي، وهذا ما أبرزته الرسالة الملكية الموجهة إلى الفاعلين في مجال الدبلوماسية المغربية السالفة الذكر، حيث قالت الرسالة الملكية: "كما يتوجب على المغرب الذي ينتسب إلى مجموعات إقليمية أخرى تربطه بها روابط خاصة يمتزج فيها الوجدان والشعور بالمصير المشترك بحتميات المصلحة والتعاون أن يبقى وفيا لقيم وأهداف الوحدة والتضامن والتعاون وحسن الجوار مع جيرانه وأشقائه وأصدقائه من المغرب العربي وإفريقيا والعالم العربي والإسلامي، وأن ينهض بدوره كاملا في هذه المجموعات ويعمل جاهدا وبإخلاص ومثابرة لبلورة تلك القيم وتحقيق تلك الأهداف والأمان متضامنا مع دول الجنوب"²³.

لقد أولت إمارة المؤمنين الشأن الديني عناية فائقة للحفاظ على نقاء وصفاء ووسطية الإسلام الأصيل كما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، و"بفضلها - أي إمارة المؤمنين - حقق المغرب أمنا روحيا واستقرارا اجتماعيا لم تزد الأيام عروته إلا التحاما ... وفي هذا الإطار كان لأمر المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله جهود كبرى من أجل صيانة الخصوصية الدينية للمغرب في ظل التغيرات العالمية المعاصرة، والتفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب، فكان لتأهيل الحقل الديني وتجديده، تحصينا للمغرب من نوازع التطرف والإرهاب، وحفاظا على هويته المتميزة بالوسطية والاعتدال والتسامح، حتى إن أثره امتد للبلدان جنوب الصحراء التي استفادت من التجربة المغربية في هذا الصدد، فكانت للدبلوماسية الدينية المغربية دور رائد تجلّى في تحصين تلك المجتمعات من كل أشكال التطرف والإرهاب العابرة للبلدان بل وللقارات والحدود.

22 - مقال للأستاذ عبد الهادي التازي بمجلة دعوة الحق بعنوان: "الملك الحسن الثاني في أوج الدبلوماسية العالمية"، العدد 255، مارس 1986م.

23 - خطاب أمير المؤمنين بطنجة في يوم 21 محرم الحرام 1421 هـ الموافق 26 أبريل 2000 م.

مفالات عامة

تدبير التعدد الثقافي في التجربة المغربية من خلال الخطب والرسائل الملكية

د. عبد الوهاب الجايي

جامعة سيدي محمد بن

عبد الله - فاس

غني عن البيان ما للخطب السامية والرسائل الملكية، من قيمة مصدرية في تدبير الشأن العمومي بالمغرب، إضافة إلى ما تحمله من رمزية معرفية كاشفة، تجعل منها نصوصا مرجعية، يمتح من معينها الغني والثري، أهل البحث من أكاديميين وجامعيين، لتأصيل أقوال في موضوعات الإصلاح المؤسسي والقانوني والإجرائي، في باب الحقوق الدستورية، والتنمية البشرية والمجالية المندمجة، وفي الحكامة الاقتصادية والبيئية والثقافية.

ونظرا لقيمة وقوة هذه النصوص، وتعدد مقارباتها وتنوع رؤاها، وتداخل موضوعاتها وتكاملها، فقد جعلت منها مادة لمدارسة سؤال التعدد الثقافي في التجربة المغربية، خصوصا المستويات التي لها تعلق بالماهية والهوية، والوظيفة والمقصد، ثم الأبعاد التعددية الجامعة ودلالاتها المجتمعية وقيمها؛ معيشا وتعايشا، حوارا وصحبة، في سياق تجاذب ثنائيات الخصوصية والكونية، والمزاوجة والانفتاح.

وقبل المضي في عملية الاستقراء الموضوعاتي لكيفيات تدبير التعدد الثقافي؛ تقييما وتحليلا، فإن الضرورة المنهجية تقتضي التوطئة للموضوع بمقدمة تؤكد على مطلب ملازمة الثوابت الثقافية والوطنية، عند الحديث عن السياق المغربي المخصوص والمتفرد، تاريخا وحضارة؛ إذ التدبير الثقافي بروافده وتنوعه وتعددده، يعزز، حتما، التماسك المجتمعي والوحدة الوطنية القائمة على الثوابت الدستورية؛ الإسلام المغربي المعتدل، وإمارة المؤمنين التي تشكل مصدر اعتزاز للهوية الدينية والثقافية والحضارية المغربية.

وبهذا الاعتبار، اكتسب فعل التدبير الثقافي، مكانة مرجعية في الوثيقة الدستورية، التي ركزت على الهوية الثقافية للمغرب، مع التنصيب على أن " المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، متشعبة بوحدتها الوطنية والترايبية، وبصيانة تلاحم مقومات هويتها الوطنية الموحدة، بانصهار كل مكوناتها؛ العربية - الإسلامية، والأمازيغية والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية.... في ظل تثبيت الشعب المغربي بقيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار، والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء"¹.

وانسجاما مع منطوق النص الدستوري، جاءت الخطاب الملكية والرسائل السامية، حافظة لمقاصد التعدد الثقافي، الخادم للهوية الوطنية الموحدة، ولروافدها؛ الأمازيغية والصحراوية، العربية الإسلامية، الإفريقية والأندلسية، العبرية والمتوسطية، مع التأكيد على اختيار منهج الانفتاح والاعتدال، وقبول مبادئ الحوار بين الثقافات والحضارات والأديان.

وبالتالي، فإن رؤية جلالة الملك نصره الله، في شأن تدبير موضوعات وقضايا التعدد الثقافي وتنوع مشاربه، كانت ساعية نحو آفاق إنسانية رحبة، مفارقة لأعطاب التقوقع والانكماش، مسلحة بمعرفة ثقافية مبدعة وفاعلة، متصلة بمنظومة القيم الإنسانية، والمحافظة على المقومات الحضارية الوطنية، والتقاليد المرعية، اجتماعيا وخلقيا وفكريا²

واستحضارا لوظائف الأبعاد الثقافية المتصلة، أولا، بتحديث المجتمع المغربي، وقضايا تطوره وأشكال تماسك بنياته ومكوناته، ثم بحفظ خصوصيته وتثمين نظام قيمه، القابل للانفتاح على منظومة القيم الكونية، الخادمة لفضائل الحضارات الإنسانية، ثانيا. تأتي هذه الورقة للكشف عن الدلالات والأبعاد التي تؤثر تدبير التعدد الثقافي في التجربة المغربية، وذلك وفق محورين اثنين:

- المحور الأول: تدبير التعددية الثقافية: الثوابت والروافد.

- المحور الثاني: المرجعية الثقافية والقيم الكونية: المزوجة والانفتاح.

1 - الدستور المغربي.

2 - راجع، محمد علال سينا، نظرات في تدبير الشأن الثقافي بالمغرب 1992-1995م، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى 2012م، ص 7 وما بعدها.

على أن تندرج تحتها مطالب تابعة ومتعلقات خادمة لمركزية الممارسة الثقافية، في نسقية تستحضر الأبعاد والتجليات المتصلة بامتلاك مكنات النهضة الثقافية، باعتبارها معيار التنمية وقياس المواطنة الحقة.

وبهذا الاعتبار، نتناول موضوع التدبير الثقافي في التجربة المغربية، انطلاقا من منظور تحليلي، وقراءة استشرافية لتجلية الأبعاد الثقافية في نصوص الخطاب السامية والرسائل الملكية، بغية إبراز مستوياتها المتعددة، والوقوف عند مضامينها المتداخلة، وبيان دلالاتها الحضارية والإنسانية.

المحور الأول: تدبير التعددية الثقافية: الثوابت والروافد.

تشكل الثقافة المغربية بتعدد روافدها وتنوع لغاتها ولهجاتها، ركنا من أركان الهوية الوطنية، القائمة على الثوابت الدستورية؛ إمارة المؤمنين، العقيدة الأشعرية، المذهب المالكي، التصوف السني والاختيار الديمقراطي.

وفي هذا السياق، يعكس القول الملكي منهجا تاما وخالصا في صيانة الهوية والتمسك بالوطنية، التي تجسدها المؤسسة الملكية، باعتبار عمدها الدينية والثقافية والحضارية، وبالتالي، فإن الهوية الثقافية الوطنية، اكتسبت مرجعية مركزية في خطب ورسائل صاحب الجلالة، التي يعتبر فيها مسألة التعدد الثقافي والتنوع اللغوي، قضية متصلة بالخصوصية المتفردة للهوية المغربية، وفي هذا الخصوص يؤكد جلالته، أنه إذا كان " لكل بناء ثابت ومرصوص دعائمه، وأن للدين أركانه، ولكل دولة قوية ركائزها القومية الخاصة، فإن للمواطنة الكاملة، التي ننشدها لكافة المغاربة، مرجعياتها الدينية والوطنية التاريخية، المتمثلة في الإسلام والملكية، والوحدة الترابية والديمقراطية، فالإسلام السني المالكي المعتدل والمنفتح، الذي ظلت إمارة المؤمنين ساهرة على حمايته، ونقاء عقيدته السمحة، مع ضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية، قد شكل، عبر العصور، البوثة التي انصهرت فيها كل مكونات الهوية الوطنية الموحدة، الغنية بروافدها الحضارية المتعددة " ³.

ومن ثم، فإن الثقافة باعتبار غنى تعدديتها وثراء تنوعها، تنصهر في المعاني الجامعة الدالة على الثوابت الوطنية، " فأن تكون مغربا معناه الجمع بين التشعب بثوابت الهوية المغربية الموحدة، الغنية بتعدد روافدها، وتقاسم القيم والتطلعات المشتركة للأمة. " ⁴

3 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي، بمناسبة الذكرى السادسة لعيد العرش، طنجة 30 يوليوز 2005م.

4 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى الحادية والخمسين لثورة الملك والشعب، تطوان 20 غشت 2004م.

والقول بمغرب متشبت بمقوماته الجماعية المرتبطة بالوحدة وبالثوابت، يراد به، في المقام الأول، كما يقول صاحب الجلالة، "التعبير عن إقرارنا جميعا بكل مقومات تاريخنا الجماعي، وهويتنا الثقافية الوطنية، التي تشكلت من روافد متعددة، صهرت تاريخنا ونسجت هويتنا، في ارتباط وثيق بوحدة أمتنا، الملتحمة بثوابتها المقدسة، المتمثلة في دينها الإسلامي الحنيف السمح، وفي الدود عن حوزة الوطن ووحدته، وفي الولاء للعرش والالتفاف حول الجالس عليه، والتعلق بالملكية الدستورية الاجتماعية"⁵.

وهذا حال العبقرية المغربية التي صنعت تاريخها، "تاريخ صنعناه بأنفسنا، لأننا شعب تاريخي، فتاريخنا لم يكن أساسه ركنا واحدا، بل أركاننا متعددة، تلك الأركان كانت وطيدة وسليمة، لأنها كانت متنوعة وصاحبة عبقرية وأصالة"⁶.

• روافد التعددية الثقافية والهوية الوطنية:

تتميز الرؤية الملكية في موضوعات التعدد الثقافي، بإعمال منهج جامع للتشكيلات والروافد المتنوعة، ونظمها في مجموع نسقي مغربي خالص، وفي هذا يقول صاحب الجلالة: "أما التعددية، فلأنها بنيت على روافد متنوعة، أمازيغية وعربية وصحراوية إفريقية وأندلسية، ساهمت كلها، وبانفتاح وتفاعل مع ثقافات وحضارات متنوعة في صقل هويتنا وإغنائها، وأما الالتحام، فقد تحقق لها بفضل الأخوة في العقيدة الإسلامية، التي شكلت العروة الوثقى لأمتنا، وقد تمكنت هويتنا من تجسيد الوحدة والاندماج والتمازج ضمن أمة موحدة، لم تعرف أغلبية أو أقلية، لأن مواطنيها يتقاسمون جميعا التشبث بثوابتها، وذلك بفضل ديمومة نظامنا الملكي منذ ثلاثة عشر قرنا، الذي أولى هويتنا في وحدتها وتنوعها، رعاية مستمرة جعلتها تنفرد، عبر تطور تاريخها الوطني، بخصوصيات لا نظير لها"⁷.

• هوية غنية وروافد منفتحة:

من خصائص النظر الملكي، رؤيته المنفتحة على الثقافات الإنسانية، في احترام أصيل للخصوصية الحضارية للمغرب وأهله، وفي هذا المعنى يؤكد جلالته "أن المغرب المتمسك بوحدة هويته الغنية، بتعدد روافدها الإسلامية والعربية، والأمازيغية والإفريقية والأورومتوسطية، قد ظل

5 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، أجدير 17 أكتوبر 2001م.

6 - مقتطف من خطاب العرش الذي ألقاه صاحب الجلالة بمناسبة الذكرى الثامنة لتربع جلالته على عرش أسلافه المنعمين، بتاريخ 30 يوليوز 2001م.

7 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى الثانية لعيد العرش، طنجة 30 يوليوز 2001م.

عبر تاريخه منفتحاً على كل الثقافات، وملتقى خصبا للتفاعل الإيجابي والتعايش الديني مع كل الديانات السماوية والحضارات الإنسانية⁸.

ونظراً للوظيفة الجامعة للهوية المغربية، فقد عمل، جلالة الملك، على توجيه رعايته السامية لتقوية دعائمها، والرفع من منسوب الاهتمام بخصائصها، حيث قال في خطابه السامي: "حرصنا على تقوية دعائم هويتنا العريقة المتميزة بتعدد روافدها، ووحدة مقوماتها المرتكزة والمتجلية في قيم الإسلام والوحدة الوطنية الراسخة، والالتحام الوثيق والمستمر بين العرش والشعب"⁹.

• الهوية الثقافية والتعدد اللغوي:

تقوم السياسة اللغوية بالمغرب، كما قال صاحب الجلالة "على جعل اللغة العربية، باعتبارها اللغة الرسمية لبلادنا لغة القرآن الكريم، اللغة الأساس للتدريس في جميع الأسلاك التعليمية، وعلى الرفع من القدرة على التحكم الجيد في استعمال اللغات الأجنبية، وعلى إدراج الأمازيغية، لأول مرة بالنسبة لتاريخ بلادنا، في المنظومة التربوية الوطنية"¹⁰.

وبعد القرار التاريخي لصاحب الجلالة بإجراء تعديل دستوري، تضمن الإعلان عنه، مبدأ التكريس الدستوري للطابع التعددي للهوية المغربية الموحدة، الغنية بتنوع روافدها، ومنها دسترة الأمازيغية كلغة رسمية للمملكة، إلى جانب اللغة العربية؛ فعلى أساس التلاحم بين مكونات الهوية الوطنية الموحدة، الغنية بتعدد روافدها العربية - الإسلامية والأمازيغية والصحراوية الإفريقية، والأندلسية، والعبرية والمتوسطية، ينص المشروع على النهوض بكافة التعبيرات اللغوية والثقافية المغربية، وفي مقدمتها الحسانية كثقافة أصيلة لأقاليمنا الصحراوية العزيزة¹¹.

إن تعددية التعبيرات اللغوية والثقافية المغربية، لا تنحصر، في الرؤية الملكية، في مجرد اعتبارها محل فخر واعتزاز، بل هي المركب لعناصر المشروع المجتمعي الديمقراطي، يقول صاحب الجلالة:

8 - الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى الاجتماع الأول للجنة المتابعة المنبثقة عن مؤتمر الهيئات الحكومية المكلفة بحقوق الإنسان في الفضاء الفرنكفوني، مراكش 27 فبراير 2004م.

9 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، أجدير 17 أكتوبر 2001م، والخطاب السامي بمناسبة استقبال أعضاء المجلس الإداري للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط 17 دجنبر 2002م،

10 - مقتطف من خطاب العرش الذي ألقاه صاحب الجلالة الملك محمد السادس بمناسبة الذكرى الثانية لربع جلالاته على عرس أسلافه المنعمين بتاريخ 30 يوليوز 2001م.

11 - الخطاب الملكي السامي حول مشروع الدستور الجديد، الرباط 17 يونيو 2011م.

"ولأن الأمازيغية مكون أساسي للثقافة الوطنية وتراث ثقافي زاخر، شاهد على حضورها في كل معالم التاريخ والحضارة المغربية، فإننا نولي النهوض بها، عناية خاصة في إنجاز مشروعاتنا المجتمعية الديمقراطية الحداثي، القائم على تأكيد الاعتبار للشخصية الوطنية، ورموزها اللغوية والثقافية والحضارية"¹².

حضور المكون الثقافي الأمازيغي في صلب المشروع المجتمعي، مقيد بمدى النهوض بالأمازيغية وتعزيز مكانتها في التداول اليومي للشخصية المغربية، وفي هذا يقول صاحب الجلالة: "إن النهوض بالأمازيغية مسؤولية وطنية، لأنه لا يمكن لأي ثقافة وطنية التنازل لجذورها التاريخية، كما أن عليها، انطلاقاً من تلك الجذور، أن تنفتح وترفض الانغلاق، من أجل تحقيق التطور الذي هو شرط بقاء وازدهار أي حضارة. وفي هذا السياق، فإن قيام المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بالمهام المنوطة به، في الحفاظ على الأمازيغية والنهوض بها، وتعزيز مكانتها في المجال التربوي والاجتماعي والثقافي والإعلامي الوطني، من شأنه أن يعطيها دفعة جديدة كتراث وطني يعد مبعث اعتزاز لكل المغاربة"¹³.

إن الحرص الملكي على رعاية الثقافة الأمازيغية الموحدة، يدرك بما تملكه هذه الثقافة من سعة، تجعل روحها موطناً للتسامح والانفتاح بين الثقافات، "إننا معترفون، يقول أمير المؤمنين، بما حققناه جميعاً على درب بلوغ المقاصد النبيلة للمصالحة التي أطلقنا مسلسلها الرائد، سواء مع تاريخ المغرب العريق، بإعادة الاعتبار للثقافة الأمازيغية، التي تؤكد عزمنا الراسخ على مواصلة النهوض بها، بوصفها مكوناً أصيلاً للهوية المغربية الموحدة"¹⁴..... وسنظل حرصين على سيادة روح التسامح والانفتاح بين الثقافات والحضارات محلية أو عالمية"¹⁵.

ذات الحرص حظيت به الثقافية الحسانية، من جهة اعتبارها أحد مقومات الهوية المغربية، التي أنيطت بالدولة مسؤولية صيانتها، ضمن منظور متعدد الأبعاد، وفي إطار الجيل الجديد من الحقوق الثقافية التي تشمل جميع الروافد، بما فيها الأندلسي والعبري والمتوسطي والإفريقي، يقول صاحب

12- مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، أجدير 17 أكتوبر 2001م.

13 - نفسه.

14 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى السادسة لعيد العرش، الرباط 30 يوليوز 2005م.

15 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى الثالثة لعيد العرش، الرباط 30 يوليوز 2002م.

الجلالة: "وإذا كانت المسيرة الخضراء قد مكنت من استرجاع أقاليمنا الجنوبية، فإن المسيرات التي نقودها تهدف إلى ترسيخ الحقوق المدنية والسياسية، والمضي قدما في النهوض بالجيل الجديد من الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية¹⁶. وتأتي في مقدمتها أقاليمنا الصحراوية وأبنائها الأوفياء، الذين خصهم الدستور بمكاسب ديمقراطية متقدمة، ولاسيما حينما كرس الحسانية كأحد مقومات الهوية الثقافية المغربية والموحدة، وأناط بالدولة مسؤولية صيانتها وتنميتها....¹⁷ ولاسيما من خلال إدماجها في البرامج الدراسية، وتثمين التراث المعماري وتشجيع الإبداع الفني بالمنطقة"¹⁸.

وكيفيات تدبير الواقع الثقافي في التجربة المغربية على عهد صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، إنما هي تعبير عن حركية فعالة بدلالات قاصدة، إلى حفظ الوحدة الوطنية، وتكريس أصالة مرجعياتها، ذات الأبعاد الإنسانية والحضارية، "فالمغاربة تلاقح حضاري أصيل بين مكونات الهوية المغربية، وهم عندنا سواسية، لا فرق بين الجبلي والريفي والصحراوي والسوسي... ومن هذا المنطلق، فإن البحث الأكاديمي في مكونات هويتنا، مفيد لترسيخ الوحدة الوطنية."¹⁹

المحور الثاني: تدبير التعددية الثقافية بين المزاوجة والانفتاح.

لما كانت الحكمة الملكية دالة على حفظ الذات الثقافية المغربية، وصيانة مكتسباتها بمد جسور اللقاء بين روافدها المتعددة ومكوناتها المتنوعة، في إطار وحدة وطنية جامعة بين العرش والشعب، فإن استصحاب معيار الشمولية الكلية، كان لازمة منهجية مضطردة في رؤية، صاحب الجلالة، لتدبير التنوع الثقافي في بعده الكوني، وفي مستوى العلاقات الإنسانية والهيئات الدولية.

• التدبير الثقافي من الخصوصية إلى الكونية.

عملا بمبدأ المعيار الكلي، فقد جعل، صاحب الجلالة، من الكونية منطلقا للمشارك الإنساني، وغاية للصحة البشرية، مما يستدعي اعتبارها غير مفضية للأحادية أو التعارض، إذ "الكونية لا

16 - من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى الثامنة والثلاثين للمسيرة الخضراء، الرباط 6 نونبر 2013م.

17 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى السادسة والثلاثين للمسيرة الخضراء، الرباط 6 نونبر 2011م.

18 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى الثامنة والثلاثين للمسيرة الخضراء، الرباط 6 نونبر 2013م.

19 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى التاسعة والثلاثين للمسيرة الخضراء، الرباط 6 نونبر 2014م.

تعني أبدا التعبير عن فكر أو نمط وحيد، بل يجب أن تشكل في جوهرها، نتاجا لدينامية انخراط تدريجي، عبر مراحل، تصل بها إلى درجة من التملك الفردي والجماعي، تجد فيه التقاليد الوطنية والثقافية مكانها الطبيعي، حول قاعدة قيم غير قابلة للتقييد، دون تعارض أو تناقض معها.²⁰

وحيث إن المقاربة الملكية تؤسس لكونية إنسانية مشتركة، جامعة وموحدة للأعراق والأجناس، فإنها "تكتسب مشروعية أكبر، حينما تمثل التنوع الإنساني وتحميه، وعندما تتبناها كل شعوب وثقافات العالم، وتساهم في صنعها وبلورتها".²¹ ويترتب عن الضوابط الحمائية لماهية الكونية، اعتبارين: الاشتراك والخصوصية، وقد أشار، صاحب الجلالة، إلى هذا الترتيب الاعتباري، حينما قال: "الكونية منظومة مشتركة بين الجميع، أما المسار الذي يؤدي إليها فيتسم بالخصوصية".²²

• التعدد الثقافي بين الانتظام المشترك ومسارات الخصوصية.

إن التمييز المنهجي بين الكونية من حيث هي منظومة مشتركة، وبين المسارات المؤدية إليها، باعتبارها تتسم بالخصوصية، ينبني عليه اختيار منهج الملاءمة والتوفيق بين الخصوصية والكونية؛ وظيفة ومقصدا، والسبب في ذلك عائد إلى حقيقة ما بات العالم عليه من عولمة ثقافية عابرة للقارات، وقد أشار جلالته إلى المسألة بقوله: "أصبح العالم اليوم يعيش بالفعل "عولمة" حضارية تساهم فيها كل الثقافات الإنسانية، عولمة قائمة على جدلية التفاعل والإغناء المتبادل، لما فيه خير الإنسانية جمعاء".²³

وقد تضافرت نصوص الرسائل الملكية، في وضع حلول عقلانية تزاوج بين المشتركات الكونية، وبين ما يندرج في باب المسارات المخصصة، وفي هذا السياق يقول جلالة الملك: "ولما كانت الهوية الثقافية في مقدمة ما تستهدفه العولمة، فإنه يتعين وضع الحلول الاستباقية للملاءمة بين ما هو ذو طابع كوني وما هو وطني، للانخراط في العصر مع الحفاظ على الخصوصيات والثوابت الوطنية".²⁴

20 - مقتطف من الرسالة الملكية بمناسبة الاحتفال بالذكرى الستين للإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

21 - الرسالة الملكية الموجهة إلى المشاركين في الدورة الثانية للمنتدى العالمي لحقوق الإنسان، المنظمة ما بين 27 و30 يوليوز 2014م.

22 - نفسه.

23 - الرسالة الملكية الموجهة إلى المشاركين في مؤتمر الجمعيات الوطنية للهلال الأحمر والصليب الأحمر لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. مراكش 15 ماي 2006م.

24 - الرسالة الملكية إلى المشاركين في المنتدى العربي الخامس للتربية والتعليم المنعقد بالصخيرات من 2 إلى 4 أبريل 2008م، تحت شعار: التعليم في الوطن العربي والعولمة.

• الاجتماع الإنساني والدبلوماسية الثقافية.

إن المقاربة المنهجية للتعدد الثقافي، باعتبار كونية المشترك وخصوصية المسار، دفعت بحركية تجديدية أعادت تركيب شروط الصحة الإنسانية، وإثراء الاجتماع الإنساني، لأن " هويتنا الثقافية والدينية قادرة اليوم، كما كانت عبر التاريخ، على الإسهام في إثراء الكونية... ذلك أن المحافظة على الخصوصية والهوية، لا يعني الانكماش على الذات، بل العمل من أجل حركية متجددة لمفهوم الأصالة في إطار المعاصرة المتلزمة بالقيم المقدسة، التي تدعو إلى التسامح والجدل والتي هي أحسن، والدعوة إلى السلم كافة".²⁵

والدبلوماسية الملكية، بما فيها من حكمة وعمق نظر، جعلت من الانفتاح والأصالة، ركيزتا الاختيار المغربي، للتعبير عن الخصوصية المتفردة للذات الثقافية المغربية في مختلف ألوانها وأشكالها، وفي هذا يقول جلالته: "إننا نطمح إلى أن يسير المغرب، في عهدنا، قدما على طريق التطور والحداثة، وينغمر في خضم الألفية الثالثة، مسلحا بنظرة تتطلع لآفاق المستقبل في تعايش مع الغير، وتفاهم مع الآخر، محافظا على خصوصيته وهويته، دون انكماش على الذات في كنف أصالة متجددة، وفي ظل معاصرة ملتزمة بقيمتنا المقدسة"²⁶.

وحرصا على مبدأ الملاءمة بين المحافظة والانفتاح، في سياق الذات والآخر، فإن اختيار الانفتاح تأسس على الالتفاف حول أنموذجية الأصالة المغربية، بدل الانغلاق وما يترتب عنه من مخاطر التفوق والانكماش على الذات، إذ "لن يتم حفاظنا على هويتنا وصيانتها من مخاطر الانغلاق والتحريف، إلا بالفهم السليم لديننا، ومن ثم ما فتئنا، منذ اعتلائنا العرش، حريصين بصفتنا أميرا للمؤمنين وحاميا لحمى الملة والدين، على صيانة الهوية الإسلامية لشعبنا، باعتبارها تشكل نموذجا مغربيا متميزا في الممارسة للإسلام؛ عقيدة سمحة، ووحدة مذهبية مالكية قائمة على الوسطية والاعتدال"²⁷.

25 - الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى المشاركين في الورش الدولي الخامس للمؤسسات الوطنية لإنعاش وحماية حقوق الإنسان الرباط 13 أبريل 2000م.

26 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة اعتلاء جلالة الملك محمد السادس عرش أسلافه المنعمين، الرباط 30 يوليوز 1999م.

27 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لعيد العرش، طنجة 30 يوليوز 2011م.

إن هذا الانفتاح المتصل بالمرجعية المغربية، القائمة على الوسطية والاعتدال، يسمح بتفعيل الدبلوماسية الموازية، التي توجه الرأي الدولي، نحو المصالح العليا للمغرب، ولقضاياها المصيرية والجيوستراتيجية، يقول صاحب الجلالة: "إن القانون الأسمى الجديد للمملكة، بما يكرسه من تثبيت بالمرجعيات والقيم الكونية المثلى، ومن سمو المواثيق الدولية - كما صادقت عليها المملكة - على التشريعات الوطنية، يشكل رافعة قوية لعمل الدبلوماسية الوطنية، في خدمة المصالح العليا والقضايا العادلة للمغرب، وتعزيز إشعاعه الجهوي والدولي".²⁸

• التعدد الثقافي والانفتاح اللغوي

إن مبدأ المزاوجة المتوازنة بين الخصوصية والكونية، يقتضي حفظ مقومات الهوية الثقافية واللغوية والحضارية، والعمل على نشر الفكر المتنور والعقلانية الكاشفة، التي يتأسس عليها مجتمع المعرفة المتشبع بقواعد التعايش، والمنفتح على القيم الكونية، وبهذا الخصوص ف"إن المملكة المغربية المقتنعة، بأنه لا يمكن أبدا تحقيق تنمية مستدامة دون حماية حقيقية للتنوع الثقافي، لا يسعها إلا أن تحيي التزام الفرنكوفونية بالنهوض بكل الثقافات وكل اللغات داخل فضاءها، كما تنوه بجهود المنظمة إلى جانب اليونسكو، من أجل تبني معاهدة دولية حول التنوع الثقافي".²⁹

وهذا التفاعل بين التنوع الثقافي والتعدد اللغوي داخل فضاءات حضارية مغايرة ومنفتحة، يسهم، من دون شك، في إغناء الهوية الوطنية، ويسمح لها بالتنافسية الثقافية والاكساب المعرفي، إذ الانفتاح على اللغات والثقافات الأخرى، لن يمس بالهوية الوطنية، بل بالعكس، سيساهم في إغنائها، لأن الهوية المغربية، والله الحمد، عريقة وراسخة وتتميز بتنوع مكوناتها الممتدة من أوروبا إلى أعماق إفريقيا.³⁰

وبالتالي، فإن الحديث عن اللغات الأجنبية، خارج مطلب المثاقفة، لن يكرس سوى صراع الألسنة، ويقذف بالوظيفة الثقافية لحوض الفرنكوفونية في أحوال التبعية اللغوية، التي نجدها حاضرة في خطاب بعض العقلليات القديمة، دون أن تميز بين السياقات اللغوية والتاريخية، وبين اللغوي والثقافي، واللغوي والمشارك الإنساني، وهو ما أشار إليه صاحب الجلالة، عندما قال: "إن

28 - نفسه

29 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي الموجه إلى القمة الفرنكوفونية المنعقدة بواغادوغو، بوركينافاسو 26 نونبر 2004م.

30 - مقتطف من الخطاب السامي بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لعيد العرش، الرباط 30 يوليوز 2014م.

بلدنا لا يختزل الفرنكوفونية في اللغة الفرنسية، كما هو شأن الاعتقاد الخاطئ والبالى لبعض العقلليات، بل يعتبر قيمها المثل المشتركة ورصيدا ثقافي والإنساني، ميراث مرحلة تاريخية استطاعت العبقرية الفرنسية والمغربية تجاوز جانبها السلبي، بترجمتها إلى شراكة نموذجية استراتيجية تعتمد تعددية اللغات، وتفاعل الثقافات.³¹

وهذا التأسيس لماهية المشترك الإنساني الثقافي والحضاري، إنما هو تعبير عن رؤية شمولية جامعة، نجد مضامينها في الرسائل السامية لصاحب الجلالة، والتي تكون بمثابة خارطة طريق توجه أعمال المؤتمرات والندوات الدولية، ومن ضمن ما جاء في الباب الرسالة السامية التي خاطب فيها، جلالته، الهيئات الحكومية في الفضاء الفرنكفوني، وفيها "إن اجتماعكم اليوم، يندرج ضمن أهداف هذه المنظمة التي تسعى إلى جعل الفرنكوفونية، أداة في خدمة تقدم الدول الأقل نمواً، وإلى تجسيد المبادئ والقيم التي تدعو لها، وتعمل من أجلها، وفي صدارتها التضامن والطموح إلى ترسيخ مجال ثقافي متميز بحضوره الوازن، وقيامه على التنوع واحترام التعددية، والإرث المشترك للثقافة الفرنكوفونية... الذي أضحي تراثا مشتركا للإنسانية".³²

• التعددية الثقافية وتقوية المدارك

متعلق تقوية المدارك بالتعددية الثقافية، معلوم من جهة ضرورة الحفظ المطلوبة، التي تندرج في باب المطالب المتصلة، بالعلوم والمعارف التي تقوي المدارك، وتفتح العقول وتنمي ملكة الحس النقدي، وتخلص الفكر من شوائب التأويلات الفاسدة الساذجة، المتخاصمة مع القيم الكونية، وأشكال ومتعلقات التفاعل بين الثقافات والحضارات والمعتقدات، إذ "من مقتضيات تفعيل خصب الأديان وتراثها في عالم اليوم، عدو إغفال العمل على تقوية مدارك الناس العلمية والمعرفية، ومن مؤهلاتهم الاجتماعية، بالقدر الذي يجعل هوياتهم الثقافية والدينية تتوافق ولا تتصادم مع غيرها، ويجعل اعتناقهم مبادئ الأديان وقيمها، ينطلق من الاقتناع الراسخ، بقيم التسامح والمساواة بين البشر".³³

31 - الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى الاجتماع الأول للجنة المتابعة المنبثقة عن مؤتمر الهيئات الحكومية المكلفة بحقوق الإنسان في الفضاء الفرنكفوني، مراكش 27 فبراير 2004م.

32 - نفسه.

33 - مقتطف من الرسالة الملكية الموجهة إلى المشاركين في ملتقى برلماني ببروكسيل حول "حقوق الإنسان وحرية العقيدة" بروكسيل 5 غشت 2004م.

إن الحاجة إلى الرافعة المعرفية، باعتبارها من لوازم وكيفيات تحرير العقلية من التئيس والعطالة، التي أصابتها وعطلت حركتها، وأقعدتها بعيدا من الفاعلية الحضارية، وهذا ما أشار إليه، صاحب الجلالة، بقوله: "تحرير الإنسان العربي من برائن الجهل والأمية، ومن نزوعات الانغلاق والتواكل والتعصب، وكذا العمل على نشر الفكر العقلاني المتنور، وبناء مجتمع المعرفة والاتصال"³⁴.

يستفاد مما تقدم، ضرورة استثمار الإشارات الملكية، التي تؤكد على المقاربة الحضارية في تدبير التعددية الثقافية، مع الأخذ بعين الاعتبار، التمييز بين الكونية من حيث هي منظومة مشتركة بأبعاد إنسانية، وبين مسارات بلوغها، من حيث هي مرتبطة بالخصوصيات الذاتية، وقد أشار، صاحب الجلالة، إلى ذلك بقوله: "إننا ندعو إلى إيلاء الثقافة بمفهومها الحضاري المكانة اللائقة بها، باعتبارها ركنا أساسيا في توجهنا الاستراتيجي، الرامي لتمكين المغرب من مشروع ثقافي هادف، في مناخ من الحرية، المشجع على الإبداع والابتكار، المجسد للتنوع والتفاعل بين الثقافات الجهوية والوطنية والكونية."³⁵

إن الرؤية الحضارية في تدبير التعدد الثقافي، علامة دالة على الاستبصار القاصد، الذي جعل من إمارة المؤمنين، إطارا مستوعبا لقضايا الحوار وموضوعات التعايش، وفق نظر متكامل الأبعاد، متناسق المجالات، منسجم المضامين، عكس فلسفة ملكية، اختارت لأرض المغرب، أن تكون قبلة لأشكال التعايش الثقافي، و"ملتقى للحضارات المتوسطة، والشرقية والغربية، بهوياتها الثقافية وأديانها المختلفة، مثالا للتسامح والانفتاح"،³⁶ على اللغات والثقافات والأديان والحضارات. وفي هذا السياق، نختم بكلمة دالة جمعت أطراف الموضوع المدروس، ومما جاء فيها "فالثقافة تعد اليوم، رافعة أساسية للإبداع والابتكار، وتغذية الروح، وإبراز الشخصية الوطنية. وبالتالي هي المحرك لدينامية مجتمعنا، الذي بقدر ما يعتز بتعددية روافده، وبرصيده الحضاري العريق، فإنه يظل متمسكا بتنوع خصوصياته، وبانفتاحه على العالم"³⁷.

34 - من الخطاب الذي وجهه صاحب الجلالة إلى القمة العربية الاقتصادية المنعقدة بالكويت، بتاريخ 19 يناير 2009م.

35 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى الخامسة لعيد العرش، الرباط 30 يوليوز 2004م.

36 - من الرسالة الملكية الموجهة إلى المشاركين في ملتقى برلماني بروكسيل 5 غشت 2005م.

37 - مقتطف من الخطاب الملكي بمناسبة الذكرى التاسعة والخمسين لثورة الملك والشعب، الرباط 20 غشت 2012م.

ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم العتيق في المجتمع المغربي الحديث

ذ. عبد الكريم العيوني
باحث - الرباط

يعد التمويل بالوقف، خاصية ملازمة للمجتمع الإسلامي عبر تاريخه الطويل، الذي تشهد عليه النصوص المتناثرة في كتب التاريخ والسجلات والحوالات الحبسية والوثائق الخاصة بالأوقاف والمخلفات الأثرية التي توضحها نماذج الأبنية التي شيدت لتكون محورا لأعمال الوقف من مثل المساجد والمدارس ومكاتب الأيتام والأسبلة والآبار والعيون⁽¹⁾.

وقد أسهم الوقف في نشأة الحضارة العربية الإسلامية، لما وفره من تمويل مستمر وشامل لكل مجالاتها⁽²⁾، خاصة ما يتعلق بجوانب العملية التعليمية، فلم يكن يدفع الطالب رسما من رسوم الدراسة التي يدفعها الطلاب اليوم، فالوقف كفيل بالأداء، ولم يكن التعليم محصورا في فئة من أبناء الشعب دون فئة بل كانت فرص التعليم متوفرة لجميع أبناء الأمة عن طريق الوقف⁽³⁾، الذي أصبح ظاهرة ثقافية في المجتمع مما أدى إلى اتساع قاعدة الأوقاف على مر العصور.

هذا من الناحية التاريخية، في كل المجتمعات الإسلامية، أما ما يمكن ملاحظته في العصر الحاضر هو تراجع ثقافة الوقف خاصة في مجال تمويل التعليم العتيق خلال القرن العشرين⁽⁴⁾، فهل معنى هذا أن ثقافة الوقف لم تعد مكونا من مكونات الثقافة في المجتمع المغربي الحديث؟

(1) بركات محمد مراد، الوقف فضيلة إسلامية وضرورة اجتماعية، البيان، عدد 228، السنة 21، شعبان 1427 هـ / سبتمبر 2006م، ص: 19.

(2) A. GUESSOUM, Le rôle socio-économique du Waqf dans la société musulmane: historique et perspective, AWQAF, numéro expérimental, Novembre 2000. P. 40.

(3) محمد بن عبد الله، ناظر الوقف وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي، دعوة الحق، عدد 269، سنة 1988م، ص: 265.

(4) لمزيد من التوسع في هذا الموضوع، راجع: عبد الكريم العيوني، إسهام الأوقاف في تمويل المؤسسات التعليمية والثقافية بالمغرب خلال القرن العشرين، دراسة تحليلية، سلسلة الرسائل الجامعية، ط 1، الأمانة العامة للأوقاف بالكويت، 2011م.

للإجابة على هذا التساؤل سنرصد (أولاً) أثر تحقيق الوقف للحاجات الاجتماعية في تشكيل ثقافة الوقف، ثم نستعرض بعض مظاهر ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم العتيق في ماضي المجتمع المغربي (ثانياً)، لنقف ونحلل واقع ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم في المجتمع المغربي (ثالثاً)، على أن نقترح، بعض الآليات للنهوض بثقافة الوقف في المجتمع المغربي الحديث (رابعاً).

أولاً: أثر تحقيق الوقف للحاجات الاجتماعية في تشكيل ثقافة الوقف

تكشف الممارسة الوقفية في المجتمع الإسلامي على أن الوقف كان ينشأ لتلبية حاجة اجتماعية ملحة يشعر بها الواقف فيؤسس الوقف بغرض تحقيقها، ويشترط في وثيقة الوقف، عدم صرف الوقف في غير ما حبس له، وقد أدى هذا إلى نشوء وتكوين فقه الحاجات الاجتماعية انطلاقاً من "تلبية الحاجات للأفراد وتقديم الخدمات المناسبة لهم في جوانب التعليم والصحة والإسكان والتدريب المهني وتنمية المجتمعات المحلية"⁽⁵⁾، فتكونت بذلك ثقافة وقفية في المجتمع من خلال احتضان وتغطية الوقف لكل المتطلبات الاجتماعية.

ولهذا يعتبر نظام الوقف نظاماً اجتماعياً شمولياً يفصح عن رعاية المجتمع، المتمثلة في مؤسسة الأوقاف، لكل الأعباء والحاجات الاجتماعية وفي جميع المجالات، ومنها مجال التعليم الذي كان في جميع مستوياته إحدى مسؤوليات المجتمع في ظل الدولة التقليدية القديمة، لكون تمويل العملية التعليمية وملحقاتها يتم بالمبادرات الخاصة من خلال نظام الوقف الذي أثبت كمصدر أساسي للتمويل الذاتي على أنه أكثر الصيغ مناسبة من حيث استقرار المؤسسات التعليمية ذاتها والاستمرار في الأداء دون تأثر كبير بالتقلبات والأزمات الطارئة، والاستقلال في البحث والحرية في الفكر⁽⁶⁾.

ويعزى هذا إلى شيوع ثقافة الوقف في المجتمع، والتي ترتب عنها أن أصبح الفقه المجتمعي أوفر حجماً ومادة من فقه الدولة المعبر عنه بالأحكام السلطانية... لأن الإسلام عول على حركة المجتمع من خلال الفرض الكفائي وهو مفهوم مجتمعي بامتياز، أصيبت الأمة الإسلامية إصابة

(5) فؤاد العمر، إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية، (سلسلة الدراسات الفائزة في مسابقة الكويت الدولية لأبحاث الوقف 1999م) ط1، الأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت، 1421هـ/ 2000م. ص: 41.

إبراهيم محمود عبد الباقي، دور الوقف في تنمية المجتمع المدني نموذج الأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت، سلسلة الرسائل الجامعية (3)، ط1، الأمانة العامة للأوقاف بالكويت، 2006م. ص: 110 وما بعدها. سليم هاني منصور، الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر، ط1، مؤسسة الرسالة، 2004م.

(6) إبراهيم غانم، لماذا غاب المجتمع المدني عن دعم التعليم الجامعي؟ الأهرام 11 يوليو 2005م.

بليغة لما أضعته أو قصرته على جوانب تقع على هامش الحياة فارتحل الفرض الكفائي من المدن ومن المجتمعات ومن الحركة والحياة إلى زاوية الموت وما تتطلبه من تغسيل الموتى وتكفينهم⁽⁷⁾.

ونظرا للإسهام الكبير للوقف في المجتمع الإسلامي فقد أصبح معناه مرادفا للثقافة العربية الإسلامية خاصة "في المناطق الجديدة التي انتشر فيها الإسلام، حيث كان له دوره الحاسم في نشوء عشرات المدن الجديدة التي تمثل هذه الثقافة، حيث إن الوقف تحول لدى بعض الشعوب التي اعتنقت الإسلام كالبنشاق إلى مؤسسة قومية"⁽⁸⁾.

كما لعب الوقف دورا كبيرا في تنمية الثقافة في المجتمعات المحلية، إذ جعل المدارس مفتوحة لأدنى شرائح المجتمع، فقد كانت هذه المدارس تقدم، حسب المكانة المالية للأوقاف التي ترعاها، الدفاتر والأقلام وحتى الطعام والكساء...⁽⁹⁾.

وبفضل الآثار الاجتماعية للوقف، انتقلت ثقافة الوقف إلى المجتمعات غير الإسلامية، فقد كان "لقانون الوقف الإسلامي أثر كبير على تطور مؤسسة التراست في إنجلترا، ومن ثم فإن الشكل الإداري والقانوني لهذه المؤسسة التي انتشرت في أوروبا بعد القرن السادس عشر يرتبط بشكل مباشر بالصيغة الوقفية كما ظهرت في بلاد المسلمين"⁽¹⁰⁾.

كما أن ثقافة التبرع كانت عاملا حاسما في تطور بعض المجتمعات الأخرى، فقد تساءل بعض الباحثين الأوروبيين المهتمين بالتاريخ الأمريكي عن الأسباب التي أدت إلى التطور الذي عرفته أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، وكادوا يجمعون في إجابتهم على "إبراز الدور الذي لعبته ثقافة التبرع، وخروج المؤسسات الخيرية كأحد المكونات الجوهرية في بناء "مشروع الولايات المتحدة الأمريكية"⁽¹¹⁾.

(7) مصطفى بن حمزة، الفقه الاجتماعي في الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدروس الحسنية لرمضان 1427هـ/أكتوبر 2006م. ص: 61-62.

(8) محمد الأرنؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، ط1، دمشق، دار الفكر، 2000م، ص: 78.

(9) المرجع السابق، ص: 80.

(10) طارق عبد الله، هارفاد وأخواتها: دلالات الوقف التعليمي في الولايات المتحدة الأمريكية، أوقاف عدد 20، مايو 2011م، ص: 47.

(11) المرجع السابق، ص: 45.

ثانيا: مظاهر من ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم العتيق في ماضي المجتمع المغربي

ضمنت الأوقاف حق التعليم لجميع أفراد المجتمع، رجالا ونساء، صغارا وكبارا، حيث اعتمدت مؤسسات التعليم على الوقف اعتمادا كليا في نفقاتها وحاجاتها إذ لم يكن في الدول الإسلامية في الماضي ديوان أو وزارة للتعليم⁽¹²⁾، فنتج عن ذلك أن التعليم نال بصفة خاصة حظا وافرا من اهتمامات الأوقاف الإسلامية حتى أضحت آنذاك خدمة مجانية⁽¹³⁾ لا يقف دورها عند البعد التعليمي وإنما تعداه إلى توفير مستلزمات السكنى والمأكل والملبس وأدوات الدراسة بالنسبة للطلاب، وكذلك توفير أجور ومرتبات للفقهاء والعلماء⁽¹⁴⁾.

وهذا الإسهام الحضاري المتميز الذي قام به الوقف، مؤثر على تكوين ثقافة وقفية في مجال تمويل التعليم من خلال تشييد الوقف المؤسسات التعليمية بمختلف مراحلها، بدءا من المساجد وما ألحق بها من كتاتيب قرآنية، ثم المدارس والمعاهد، والزوايا والرباطات، والبيمارستانات، والكراسي العلمية، وفيما يلي إشارة موجزة لهذه المؤسسات:

1. الوقف على المساجد والكتاتيب القرآنية

ارتبط تاريخ التعليم عند المسلمين ارتباطا وثيقا بالمسجد⁽¹⁵⁾، فهو الجامعة العلمية التي ساهمت في تخريج جل المفكرين والعابرة، في شتى المجالات، والذين قادوا مسيرة التطور الحضاري في العالم كله⁽¹⁶⁾.

ولم تكن المساجد إلا منشآت وقفية، فأول وقف في الإسلام هو مسجد قباء⁽¹⁷⁾ الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند دخوله المدينة، وفيه بدأ المسلمون تعلم القرآن والقراءة والكتابة⁽¹⁸⁾.

(12) أحمد أبو زيد، نظام الوقف الإسلامي، مرجع سابق، ص: 39.

(13) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ط2، القاهرة، دار السلام، 2005. ص: 100.

(14) محمد بن عبد الله، ناظر الوقف وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي، مرجع سابق. ص: 237.

(15) ممدوح الصديقي، وآخرون، الدور التربوي والاجتماعي للمسجد، الرباط، إيسيسكو-1321 هـ/2000م، ص: 6 وما بعدها.

(16) الدسوقي محمد، الوقف ودوره في تنمية المجتمع الإسلامي، سلسلة قضايا إسلامية، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القسم الأول عدد 64، سنة 2000م، ص: 91.

(17) حسن عبد الغني أبوغدة، الوقف ودوره في التنمية الثقافية والعلمية، مجلة الشريعة والقانون، عدد 22، ذو القعدة 1425هـ/يناير 2005، جامعة الإمارات العربية المتحدة، كلية الشريعة والقانون، ص: 47.

(18) نعمت عبد الطيف مشهور، أثر الوقف في تنمية المجتمع، القاهرة، مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، 1997م، ص: 82.

وفي المغرب، يعتبر جامع القرويين بفاس⁽¹⁹⁾ (الجامع والجامعة)، ومسجد ابن يوسف بمراكش، من أشهر المساجد التي ساهمت في تخريج العلماء والفقهاء في مختلف التخصصات ومن مختلف الأمصار، فجامع القرويين تحول إلى جامعة⁽²⁰⁾ يحج إليها الطلاب من المشرق وإفريقيا بل حتى من أوروبا نفسها في العصور الوسطى.

ولم يكن للقرويين أن تقوم بهذا الدور التعليمي والحضاري إلا بفضل تمويل الوقف لها، ذلك أن مداخيل جامع القرويين نافست مداخيل ميزانية الدولة نفسها في العصور الماضية، بما توفرت عليه من جليل العقار وفسيح الغابات، وحتى اضطرت الدولة أحيانا إلى الالتجاء إلى مستودع أوقافها وخاصة في ظروف الحرب⁽²¹⁾، مما مكن العلماء من النهوض برسالتهم، لأن الأوقاف منحتهم استقلالاً مادياً ومعنوياً⁽²²⁾.

أما الكتاتيب فهي مفرد كتاب، وهي أماكن لتعليم الصبيان الكتابة والقراءة واللغة العربية والعلوم الرياضية وحفظ القرآن الكريم⁽²³⁾، وكانت في الغالب تلحق بالمساجد وتؤسس إلى جانبها، وهي تشبه المدارس الابتدائية في العصر الحالي، وكانت لها أوقاف خاصة بها⁽²⁴⁾.

2. المدارس والمعاهد

نشأت المدارس بجانب المساجد وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في العصر الحاضر⁽²⁵⁾، ولقد كان للوقف الأثر البالغ في تشييد المدارس والمعاهد، في العالم الإسلامي من أدناه

(19) هذه المعلمة التاريخية بدأت بنائها فاطمة الفهرية وتكنى بأُم البنين في أول من شهر رمضان سنة (245هـ/859م)، ونذرت لله أن تصوم شكراً لله حتى يتم البناء. انظر: عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972م، ج1، ص: 47.

(20) السعيد بور كبة، آثار الوقف في الحياة المجتمعية بالمغرب عبر التاريخ، دعوة الحق، عدد 284، ذو الحجة 1411/ يوليو 1991م، ص: 117.

(21) عبد الهادي التازي، توظيف الوقف لخدمة السياسة الخارجية في المغرب، ندوة الوقف في العالم الإسلامي أداة سلطة اجتماعية وسياسية، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، تقديم راندي ديغيلم، 1995م، ص: 64.

(22) « Les enseignants étaient payés par le Waqf, ce qui les rendait indépendants moralement et matériellement du pouvoir public ». **Waqf et développement**, Publié le mercredi 4 juillet 2007. http://www.bismillah-debats.fr.st/article.php3?id_article=230, Le temps de visite: 4/1/2008.

(23) أحمد شلبي، موسوعة الحضارة الإسلامية، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، ط11، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1999م. ص: 47 وما بعدها.

(24) ينظر لمزيد من الاطلاع، عبد الكريم العيوني، إسهام الأوقاف في تمويل المؤسسات التعليمية والثقافية بالمغرب خلال القرن العشرين، دراسة تحليلية، ط1، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، 2011م. ص: 39.

(25) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص: 100.

إلى أقصاه⁽²⁶⁾، ففي المغرب، كان إنشاء المدارس الوقفية مع تأسيس الدولة المرينية عام 670هـ، فقد أسس السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 670هـ/1271م مدرسة الحلفاويين، وتسمى أيضا اليعقوبية، ومما تجدر ملاحظته أن الإمام محمد بن سليمان الجزولي، صاحب (دلائل الخيرات) كان يسكن في خلوة من هذه المدرسة تقع بجانب قاعة الصلاة في يسار الواقف ويقال: "بأنه ألف كتابه دلائل الخيرات وقت إقامته بها"⁽²⁷⁾.

كما بنى السلطان يعقوب العديد من "المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده"⁽²⁸⁾. كما بنى "أبو الحسن علي بن سعيد المريني مدرسة الصهريج سنة 721هـ، ومدرسة السبعين التي كان الطلبة يدرسون فيها القراءات السبع، ومدرسة العطارين التي بناها أبو سعيد المريني سنة 723هـ، والمدرسة المصباحية التي بناها أبو الحسن المريني سنة 745هـ، والمدرسة البوعنانية التي بناها أبو عنان المريني سنة 756هـ"⁽²⁹⁾.

كما كانت القبائل المغربية "تتنافس فيما بينها في تشييد المدارس العلمية، وعمارتها والاعتناء بها، بل تتباهى فيما بينها في إقامة المؤسسات التعليمية، ففي منطقة سوس جنوب المغرب مثلاً، قلما تجد قبيلة ليس بها معهد ديني يستقبل حفظة القرآن الكريم والآفقيين⁽³⁰⁾ من مختلف الأقاليم المغربية، بما توفره تلك المدارس من مسكن مجاني إضافة إلى المأكل والمشرب، والمصدر التمويلي لذلك هو الأعرار أو الأحباس أو المساعدات السنوية من أبناء القبيلة لضمان استمرار المؤسسة"⁽³¹⁾.

(26) أحمد أبو زيد، نظام الوقف الإسلامي، مرجع سابق، ص: 40.

وللمقارنة بين نشأة المدارس في الإسلام والغرب، وكيف أن تأسيس المدارس كان يتم بمبادرة حرة من طرف أي فرد في المجتمع الإسلامي من خلال الوقف، انظر:

M. GEORGE, *THE Rise of Colleges, Institutions of learning in Islam and West*, Edinburgh University Press, New York, 1981.

(27) السعيد بور كبة، دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب، مرجع سابق، ج 1/ ص: 79-80.

(28) أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1418هـ/1997م. ج 3/ ص 65.

(29) محمد الحجوي، الجوامع والمدارس، مرجع سابق، ص: 102.

(30) الآفقي على وزن فاعل الذي قد بلغ الغاية في العلم والكرم وغيره من الخير. والآفقيون في الدراسة هم الوافدون من جميع النواحي من غير سكان البلدة التي فيها المؤسسة التعليمية. وفي نفس المعنى انظر: إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط 4، تحقيق أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، بيروت، 1407هـ/1984م، (4/ 1446).

(31) عبد الحميد محيي الدين، المؤسسات الثقافية الإسلامية في جنوب المغرب بين ماضيها ومستقبلها، ندوة مستقبل العالم الإسلامي الثقافي من خلال واقعه المعاصر، مجلة جامعة القرويين، العدد الثامن، 1415هـ/1994م. ص: 195هـ.

كما توجد "أحباس خاصة لسكنى طلبة العلم وتوفير حاجاتهم، فمثلا توجد بمدينة تطوان مؤسسة جامع لوقش بها حوالي ستين غرفة محبسة لسكنى الطلبة وإطعامهم"⁽³²⁾، وكان الناظر يزاعي عند توزيع البيوت على الطلبة ما يضمن راحتهم ومصالح المدرسة والمصلين والدارسين، فيخصص بيوت الصدارة للعلماء والمتقدمين من الطلبة، والبيوت المضيئة لمن يشتغل منهم بالنسخ، ويسكن أهل الحضر في الطابق العلوي لأنهم أقل إزعاجا من البدو الجفاة⁽³³⁾. وقد كان الطلبة والأساتذة وأعوان المدارس ينعمون حقا بما يغدق عليهم من أموال الأوقاف ولا سيما عندما يرتفع كراء الدور والأراضي⁽³⁴⁾.

3. الزوايا والرباطات

تعتبر الزوايا من معاهد التعليم⁽³⁵⁾ في تاريخ التربية عند المسلمين، وتطلق الزاوية في المغرب على مسجد خاص بطائفة صوفية⁽³⁶⁾، وقد لعبت دورا مهما في الدفاع عن الثغور، أما الرباط: فهو مكان ملازمة ثغر العدو كالمرابطة كما في الصحاح، ورباط الخيل مرابطتها وربما سمي الخيل رباطا أو الرباط، وقد أطلق هذا الاسم على نوع من الثكنات العسكرية⁽³⁷⁾، التي كانت تبنى على الحدود الإسلامية وقرب الثغور، حيث تتم فيها التربية العسكرية، ويقيم فيها المرابطون للدفاع عن الأمة الإسلامية، وكانت هي الأخرى تمول بالوقف حيث "يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح، وذخيرة وطعام وشراب"⁽³⁸⁾.

4. البيمارستان (المؤسسات الطبية)

البيمارستان هو المستشفى في العصر الحاضر، والدارس لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية ولأثر الوقف فيها، يلاحظ أنه كان للوقف "أكبر الإسهامات في إنشاء وتشغيل البيمارستانات كما

(32) محمد التجكاني، الإحسان الإلزامي (مرجع سابق)، ص: 559.

(33) محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب، 1396هـ / 1976م، ج 1/ ص: 127.

(34) عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، مرجع سابق، ص: 356.

(35) R. DEGUILHEM, ABDEHAMID HANIA, *Les fondations Pieuses (waqf) en Méditerranée enjeux de société; enjeux de pouvoir*, Kuwait Awqaf Public Foundation, Kuwait 2004, p. 241.

(36) J. LUCCIONI, *Les Fondations Pieuses "Habous" au Maroc depuis les origines jusqu' à 1956*, RABAT, Imprimerie Royale. 1982. p-p. 56-60.

(37) محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج 19/ ص 299.

(38) محمد الدسوقي، دور الوقف في تنمية العمل في مجال الدعوة الإسلامية، الوعي الإسلامي، عدد 402، صفر 1420هـ / يونيو 1999م. ص: 30.

كان للوقف دور فريد في تمويل وتجهيز المستشفيات بالإضافة إلى مبانيها، وكذلك رواتب الأطباء ومساعدتهم والمختبرات وكذلك تمويل كليات الطب وكليات الصيدلة والمتدربين فيها⁽³⁹⁾.

ويعود إنشاء البيمارستانات في المغرب إلى تاريخ الموحدين، فقد بنى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بمراكش البيمارستان، و"أجرى فيه مياه كثيرة وغرس فيه من جميع الأشجار وزخرفه وأمر له في كل يوم ثلاثين دينارا للأدوية وكان يعود المرضى فيه في كل جمعة"⁽⁴⁰⁾.

وفي عهد المرينيين كثر بناء البيمارستانات، وقد كان للسلطان أبي الحسن فضل تجديد المارستان في مدينة فاس، واقتفى أثره السلطان أبو عنان في العناية به والتحسيس عليه، فكان قدوة لعدد من المحسنين الذين قدموا العطاءات الجزيلة، فلم تمض سنة حتى كانت للمارستان نظارة على حدة تتعهد المصابين بأمراض نفسية، والمتعيين والمحرومين والغرباء.. كما خصص بعض الناس أوقافا للموسيقين الذين يسمعون المصابين في أوقات معينة ما يخفف عنهم الآلام والأمراض⁽⁴¹⁾.

5. الكراسي العلمية ونظام التعليم المفتوح

ساهمت الأوقاف على الكراسي العلمية في نشر التعليم والثقافة الإسلامية في مختلف المساجد في العالم الإسلامي على مر التاريخ، والكرسي العلمي كان ينشأ نتيجة إحساس الواقف بالحاجة لتدريس علم من العلوم، فيخصص أوقافا له من أجل بقاءه واستمراره، وهذا ما يفسر تنوع العلوم التي كانت تدرس في الكراسي العلمية من فقه وتفسير وأصول وحديث وقرآيات⁽⁴²⁾...

(39) أحمد عوف عبد الرحمن، الأوقاف والحضارة الطبية الإسلامية، سلسلة قضايا إسلامية، عدد 136، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1427هـ / 2006م. ص: 57.

جمال محمد الهندي، تربية علماء الطبيعيات والكونيات المسلمين في القرون الخمسة الأولى من الهجرة، ط1، المنصورة، دار الوفاء، 2000م. ص: 353 وما بعدها.

(40) صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، بيروت، دار إحياء التراث، 1420هـ / 2000م. ج28، ص: 98. انظر أيضا محمد بن عبد الله، الوقف في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ج1، ص: 151.

(41) عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، مرجع سابق، ص: 457.

(42) محمد المنوني، كراسي الأساتذة بجامعة القرويين، دعوة الحق، عدد 4، السنة التاسعة، 1966م، ص: 91. ويذكر ابن بطوطة أن ظهور الكراسي العلمية كان في المشرق، فالمدرسة المستنصرية ببغداد، كان "بها المذاهب الأربعة، لكل مذهب إيوان في المسجد وموضع التدريس وجلس المدرس في قبة من خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرس عليه وعليه السكينة والوقار لابسا السواد معتما وعليه يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يقوله، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة" محمد بن عبد الله اللواتي، رحلة بن بطوطة، ط4، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405هـ، ج1/ص244.

وقد برزت ظاهرة الكراسي العلمية بالمغرب في عهد المرينيين كنتيجة لازدهار الفكر والثقافة، وكانت لهذه الكراسي "أوقاف خاصة صادرة عن الملوك والأمراء والأفراد تشمل وقف عقارات وأملاك على العلماء والمحدثين للتدريس بهذه الكراسي وضمان استمرارها لأداء رسالتها"⁽⁴³⁾، ثم ازدهرت الكراسي العلمية في عهد السعديين بتزايد عددها وكثرة الأوقاف عليها من قبل الأمراء وعامة الناس، فمن نماذج الكراسي العلمية بفاس في عهد الوطاسيين والسعديين، "كرسي البخاري بشرح فتح الباري، عن يسار الطالع من الباب الواقع بشرقي القرويين، أنشأه وخصص له أوقافا عديدة الأمير أحمد الوطاسي (ت. 960هـ/1553م).

وفي مراكش، كرسي التفسير بمسجد أبي العباس السبتي، من إنشاء ووقف الأمير أبي فارس بن أحمد المنصور، وكراسي متعددة العلوم متنوعة بجامع باب دكالة من أوقاف عودة الوزكيتية والدة أحمد المنصور"⁽⁴⁴⁾.

ويلاحظ أن الكرسي العلمي كان يضاف للفن أو الكتاب الذي سيدرس فيه، كما كانت بعض الكراسي تلقب بكرسي التدريس، أي أنها كراسي مفتوحة بحيث تكون للعالم فيها الحرية في اختيار العلم الذي يرغب في تدريسه، كما أن بعض الكراسي كانت تنسب لمشاهير العلماء ككرسي الونشريسي (ت. 914هـ/1509م)، وهذا يعني أن الواقف هو الذي كان يحدد العلم الذي سيدرس في كرسي معين بناء على الحاجة إليه، بل قد يعين حتى العالم الذي سيقوم بالتدريس في ذلك الكرسي، لذلك كانت توضع شروط معينة من أجل التدريس، فليس كل من هب ودب يمكن أن يلقي الدروس وإنما لابد من أن يكون عالما بالشرع وبالكرسي الذي سيختص فيه⁽⁴⁵⁾، ومن أمثلة ذلك الكرسي المختص بتجويد القرآن الكريم بسارية في جامع القرويين، وقد أنشأ وقف هذه السارية الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد الشاوي المتوفى في عام 1014هـ، وقد عين المحبس لهذا الوقف الأستاذ أبي العباس أحمد بن علي بن شعيب الفاسي (ت. 1015هـ) ثم من يأتي بعده⁽⁴⁶⁾.

(43) يوسف الكتاني، ظاهرة الكراسي العلمية، دعوة الحق، عدد 244، جمادى الأولى 1405هـ / يناير 1985م. ص: 102-103. - محمد

المنوني، كراسي الأساتذة بجامعة القرويين، مرجع سابق، ص: 91.

(44) محمد حجي، الحركة الفكرية، مرجع سابق، ص: 119.

(45) محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب، مرجع سابق، ج 1 / ص: 120.

(46) محمد بن عبد الله، ناظر الوقف وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي، دعوة الحق، عدد 269، سنة 1988م. ص: 269.

ويمكن القول إن الكراسي العلمية ساهمت بشكل كبير في توطيد دعائم الدين وعلومه ونشر الثقافة الإسلامية، من خلال ما توفر لديها من أوقاف مخصصة لها، دعمت مسيرتها على مر التاريخ، إضافة إلى الدور التعليمي المتميز للكراسي العلمية من خلال العلوم والتخصصات التي كانت تدرس بها، بطريقة نظام التعليم المفتوح في وجه كل من يرغب في التعلم ويعمر بيوت الله.

ويتبين مما سبق، على أن الأوقاف كان لها أثر كبير في تأسيس وتشديد المؤسسات التعليمية في المجتمع المغربي، بل يمكن القول إن الوقف كان الممول الوحيد لها، وهذا يبرز مكانة ثقافة الوقف في ماضي المجتمع المغربي، لكن هل استمر الوضع على ما هو عليه أم حدث تغير وتراجع؟

ثالثا: واقع ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم العتيق في المجتمع المغربي الحديث

تأثر إسهام الوقف في مجال تمويل التعليم في العصر الحاضر بالتطور الحاصل في وظيفة الدولة الحديثة الوصية على القطاعات الحيوية الاجتماعية التي تعتبر من صميم اختصاصات المجتمع، فكيف يمكن تشخيص حالة ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم العتيق في المجتمع المغربي الحديث؟ (1) وما عوامل تشكيل مستوى ثقافة الوقف في هذا المضمار؟ (2)

1. تشخيص حالة ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم العتيق في المجتمع المغربي الحديث

لفهم الحالة الوقفية المعاصرة في المغرب بصفة عامة، وفي مجال تمويل التعليم العتيق بصفة خاصة، ومن ثم التعرف على مستوى الثقافة الوقفية في المجتمع، يكون من المفيد تحديد الطبيعة القانونية لمالية الأوقاف العامة (أ) ثم بيان مقدار إسهام الدولة والخواص والأوقاف في تمويل التعليم العتيق (ب)

أ. الطبيعة القانونية لمالية الأوقاف العامة

الميزانية الخاصة للأوقاف العامة هي ميزانية سنوية مستقلة عن الميزانية العامة للدولة وتقوم على أساس التوازن المالي بين الموارد والنفقات طبقا لأحكام المدونة والنصوص المتخذة لتطبيقها⁽⁴⁷⁾.

وحسب نص المادة 135 من المدونة فإن ميزانية الأوقاف العامة، تشتمل على جزئين، يتعلق الجزء الأول منها بالموارد، ويتعلق الثاني بالنفقات. ويتكون كل جزأين منها من قسمين قسم خاص بالتسيير وقسم خاص بالاستثمار.

(47) المادة 134 من مدونة الأوقاف المغربية.

كما تشتمل، إضافة إلى ذلك، على حسابات خصوصية تتعلق بمشاريع وقفية محددة.

وتحدث الحسابات الخصوصية حسب المادة 135 المشار إليها أعلاه بقرار للسلطة الحكومية المكلفة بالأوقاف، وذلك من أجل تدير مالي ومحاسبي مستقل للموارد والنفقات المتعلقة ببعض المشاريع الوقفية التي تكتسي طابعا خاصا، والتي يتم تمويلها كلا أو جزاء إما من عائدات الأوقاف العامة، وإما بدعم خاص من الدولة أو أحد أشخاص القانون العام أو الخاص في إطار اتفاقية بين إدارة الأوقاف والجهة الممولة⁽⁴⁸⁾.

كما نصت المادة السابعة من قرار وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بسن التنظيم المالي والمحاسبي الخاص بالأوقاف العامة على أن الميزانية الخاصة للأوقاف العامة تتكون من ميزانية رئيسية وحسابات خصوصية⁽⁴⁹⁾.

ويستنتج من هذه المواد أن موارد الميزانية الخاصة بالأوقاف العامة تستخلص، أولا، من الميزانية الرئيسية، أي مما تدره الأعيان الموقوفة على جهات مختلفة⁽⁵⁰⁾، والتي منها التعليم، دون تحديد دقيق للغرض الذي وقفت من أجله، لأن جلها أوقاف قديمة تشكلت على مر العصور، كما أن الأوقاف الجديدة الخاصة بالتعليم، على ندرتها، لا يوجد لها أثر في بنود الميزانية برسم السنة المالية 2016م، وإنما في بنود النفقات يتم تحديد المبلغ الذي سيصرف على التعليم العتيق.

(48) المادة 139 من مدونة الأوقاف المغربية.

(49) قرار لوزير الأوقاف والشؤون الإسلامية رقم 2685.13 صادر في 12 من ذي القعدة 1434 (19 شتنبر 2013) بسن التنظيم المالي والمحاسبي الخاص بالأوقاف العامة. الجريدة الرسمية عدد 6198 بتاريخ 24 أكتوبر 2013م.

(50) تنص المادة 136 من المدونة على أن موارد الميزانية الخاصة هي:

- مداخيل الأكرية؛
- مداخيل المعاوضات؛
- عائدات بيع منتوج الأشجار والغلل ومواد المقالع الوقفية وغيرها؛
- عائدات التوظيفات المالية؛
- مداخيل الاكتتاب في السندات الوقفية؛
- الإعانات المالية التي تقدمها الدولة والهيئات الأخرى؛
- الهبات والوصايا؛
- موارد مختلفة...

كما تشكل، ثانيا، موارد الحسابات الخصوصية التي ترصدها الدولة تحقيقا لبعض المشاريع الوقفية، الميزانية الخاصة للأوقاف العامة.

ب. إسهام الدولة والخواص والأوقاف في تمويل التعليم العتيق

• تنظيم التعليم العتيق

نظم التعليم العتيق في المغرب بالقانون رقم 13.01 في شأن التعليم العتيق الصادر بتنفيذه الظهير الشريف رقم 1.02.09 بتاريخ 15 ذي القعدة 1422 (29 يناير 2002)⁽⁵¹⁾.

وفي دجنبر 2003م، أحدثت مديرية للتعليم العتيق بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بمقتضى ظهير شريف رقم 1.03.193 في شأن اختصاصات وتنظيم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية⁽⁵²⁾، الذي ألغي بالظهير الشريف رقم 1.16.38 صادر في 17 من جمادى الأولى 1437 (26 فبراير 2016) في شأن اختصاصات وتنظيم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية⁽⁵³⁾، وأصبحت هذه المديرية تسمى في الظهير الأخير بمديرية التعليم العتيق ومحو الأمية بالمساجد⁽⁵⁴⁾.

كما صدرت سنة 2006م ستة قرارات خاصة بتطبيق أحكام القانون رقم 13.01، والمتعلقة بمجالات تنظيم الدراسات والامتحانات وكيفية منح الترخيص بفتح مؤسسات التعليم العتيق وتوسيعها وتغييرها، وشروط الاستفادة من دعم الدولة⁽⁵⁵⁾، وغيرها من مقتضيات التنظيمية.

وفي سنة 2015م أعيد تنظيم جامعة القرويين بنقل الإشراف والوصاية عليها من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي وتكوين الأطر إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالظهير الشريف رقم 1.15.71 المؤرخ في 07 رمضان 1436 (24 يونيو 2015م)⁽⁵⁶⁾.

(51) الجريدة الرسمية عدد: 4977 بتاريخ 28 ذي القعدة 1422 (11 فبراير 2002م)

(52) الجريدة الرسمية عدد: 5172 بتاريخ فاتح ذي القعدة 1424هـ (25 ديسمبر 2003م)

(53) الجريدة الرسمية عدد 6448 بتاريخ 7 جمادى الآخرة 1437هـ (17 مارس 2016م)

(54) تنص المادة الثالثة من الظهير المشار إليه أعلاه على أن الإدارة المركزية للوزارة تشتمل على: الكتابة العامة؛ المفتشية العامة؛ مديرية الأوقاف؛ مديرية الشؤون الإسلامية؛ مديرية المساجد؛ مديرية تدبير شؤون القيميين الدينيين؛ مديرية التعليم العتيق ومحو الأمية بالمساجد؛ مديرية الشؤون الإدارية والتعاون؛ مديرية الشؤون القانونية.

(55) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عشر سنوات من العهد المحمدي الزاهر (1999 – 2009م)، ص: 122.

(56) الجريدة الرسمية عدد: 6372 بتاريخ 8 رمضان 1436هـ (25 يونيو 2015م).

وتتضمن جامعة القرويين حسب المادة 16 من هذا الظهير المعاهد والمؤسسات التالية:

مؤسسة دار الحديث الحسنية؛ المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب؛ معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية؛ معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات؛ جامع القرويين للتعليم النهائي العتيق؛ المدرسة القرآنية للتعليم النهائي العتيق التابعة لمؤسسة مسجد الحسن الثاني.

وتدرج الميزانية المتعلقة بتسيير جامعة القرويين والمؤسسات التابعة لها في الميزانية العامة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

• تمويل التعليم العتيق

تسهم الدولة في تمويل التعليم العتيق بشق كبير من الميزانية العامة التي ترصد كل سنة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سواء تعلق الأمر بالتسيير أو الاستثمار، فالمبلغ المرسود للتعليم العتيق في الميزانية العامة ارتفع بشكل مطرد خلال السنوات الأخيرة.

كما تسهم الدولة في تمويل هذا التعليم عن طريق الدعم التي تقدمه للميزانية الخاصة بالأوقاف العامة والمرصود في شكل حسابات خصوصية، وقد شهد بدوره ارتفاعا ملحوظا.

كما يتم تمويل هذا التعليم من الميزانية الخاصة بالأوقاف العامة، أي الناتجة عن موارد الأموال الموقوفة سواء تعلق الأمر بالتسيير أو الاستثمار.

كما يسهم الخواص من جمعيات ومحسنين في تمويل التعليم العتيق.

وعند المقارنة بين ما هو مرصود من الميزانية العامة والحسابات الخصوصية، أي دعم الدولة، وما يسهم به الخواص في تمويل التعليم العتيق، وبين ما هو مرصود من الميزانية الخاصة للأوقاف العامة للتعليم العتيق، يلاحظ أن نسبة التمويل المقدم من الدولة لتمويل التعليم العتيق تصل إلى 71,01٪، تليها مساهمة الخواص بنسبة 26,84٪ وأخيرا الميزانية الخاصة للأوقاف العامة بنسبة 2,15٪.

وينقسم تمويل التعليم العتيق، من حيث عدد المؤسسات، إلى ثلاثة أصناف:

- تعليم عتيق تحت إشراف الوزارة بصفة مباشرة، وتوفر له ميزانيته الكاملة ويتعلق الأمر بـ 27 مؤسسة، بنسبة 9,41٪.

- تعليم عتيق خاص (يشرف عليه أشخاص ذاتيون أو جمعيات) تسهم الوزارة في تمويله ويتعلق الأمر ب 240 مؤسسة، بنسبة 83,62٪.

- تعليم عتيق خاص (يشرف عليه أشخاص ذاتيون أو جمعيات) لا تصرف عليها الوزارة ويتولاه المحسنون ويتعلق الأمر ب 20 بنسبة 6,97٪.

وعلى هذا فإن مدارس التعليم العتيق (ابتدائي، إعدادي، ثانوي) بلغت 287 مدرسة خلال الموسم الدراسي 2015 / 2016م، تشرف الجمعيات دون الأشخاص الذاتيين على العديد منها وتبلغ نسبة الإشراف 68,29 في المائة⁽⁵⁷⁾.

أما عدد مؤسسات التعليم الجامعي أو النهائي⁽⁵⁸⁾ فهي 7 جوامع ومعاهد⁽⁵⁹⁾.

أما عدد الكتاتيب القرآنية فقد بلغت 12.241 كتابا قرآنيا (التعليم الأولي)، تسير الجمعيات منها 621 كتابا فقط، أي بنسبة 5,07 في المائة من مجموع الكتاتيب القرآنية⁽⁶⁰⁾.

ويستفاد من تحليل المعطيات السابقة، التطور الإيجابي لعلاقة الدولة بالتعليم العتيق بدءا من الاعتراف القانوني به ثم الدعم المالي المرصود له في الميزانية العامة والخاصة سواء تعلق الأمر بالتسيير أو الاستثمار، حيث تسهم الدولة بحوالي ثلاثة أرباع التمويل، ثم مساهمة الخواص من جمعيات وأشخاص ذاتيين، وأخيرا إسهام الميزانية الخاصة بالأوقاف العامة بنسبة ضعيفة في تمويل هذا التعليم، ولعل هذا ما يكشف ضعف مستوى ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم العتيق. فما هي أهم العوامل التي ساهمت في هذا المستوى؟

(57) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إحصائيات مؤسسات التعليم العتيق، الموسم الدراسي: 2015/2016م، المملكة المغربية، ص: 61.

(58) مؤسسات التعليم النهائي هي تلك المؤسسات التي يلتحق بها الطالب بعد الانتهاء من المرحلة الثانوية بالمدارس العتيقة والمعاهد الدينية، وقد نص قانون التعليم العتيق على أن مؤسسات التعليم النهائي هي جامع القرويين والجوامع الأخرى، المادة 1 من القانون المنظم للتعليم العتيق رقم 13.01.

(59) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إحصائيات مؤسسات التعليم العتيق، الموسم الدراسي: 2015/2016م، المملكة المغربية، ص: 62.

(60) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إحصائيات مؤسسات التعليم العتيق، الموسم الدراسي: 2015/2016م، المملكة المغربية، ص: 11. في الموسم الدراسي 2012/2013م بلغ عدد أماكن التحفيظ 14707 مكانا للتحفيظ موزعة على 261 مكانا داخل المدارس التعليم العتيق و14446 خارجها، وعدد أماكن التحفيظ التي تسيرها جمعيات هو 919 مكانا فقط أي بنسبة 6,25 في المائة من مجموع أماكن التحفيظ. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إحصائيات مؤسسات التعليم العتيق، الموسم الدراسي 2012/2013م، المملكة المغربية، 2013م، ص: 19.

2. عوامل تشكيل مستوى ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم

حدثت تغيرات جذرية في المجتمع المغربي، كغيره من المجتمعات الإسلامية، خلال القرن العشرين جراء الاحتلال الذي تعرض له، والتحول الذي حدث في وظائف الدولة الحديثة⁽⁶¹⁾، وكان من آثار هذه التغيرات تهميش مؤسسة الأوقاف وتقليص دورها في مجال تمويل التعليم مما أدى إلى تراجع ثقافة الوقف بسبب التغير الوظيفي للدولة الحديثة (أ) وضعف مشاركة المجتمع المدني في تمويل التعليم (ب) وانحصار ثقافة الوقف في عملية بناء المساجد (ج).

أ. التغير الوظيفي للدولة الحديثة

انتقلت الدولة الحديثة، في وظيفتها الاقتصادية والاجتماعية، من الدولة الحارسة للعمل الاقتصادي في المذهب الرأسمالي إلى الدولة المنقذة L'Eta Providence، وقد غطت هذه الفكرة المرحلة الممتدة إلى سبعينات القرن العشرين، وقد شهدت هذه المرحلة تجاوز وظيفة الدولة لمعالم الدولة الحارسة إلى التدخل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية من خلال إيجاد الضمان الاجتماعي والخدمات الاجتماعية، الصحة والتعليم⁽⁶²⁾، أما الدولة في المذهب الاشتراكي فهي أكثر هيمنة ومركزية وتدخلًا في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية.

وبفعل هذا التوجه الجديد للدولة الحديثة، وتدخلها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية، الصحة والتعليم، تأثرت مؤسسة الأوقاف تأثراً كبيراً، وذلك بحلول الدولة محلها بمؤسساتها الوزارية - وزارة التعليم - في الجوانب المتعلقة بالعملية التعليمية التي كانت من اختصاصها، وبهذا انتقل التعليم من سلطة المجتمع والأمة إلى سلطة الدولة كأثر لعملية تأميم الأوقاف L'étatisation Des Awqafs وانتقالها إلى الإدارة العمومية⁽⁶³⁾، فنتج عن ذلك تصدع لعلاقة الوقف بالقطاع الأهلي أفراداً ومؤسسات في العقود الأخيرة بسبب تدخل السلطة التنفيذية في إدارة الأوقاف، وهذا كان له أثر في تنحي القطاع الأهلي عن المساهمة في التنمية المجتمعية⁽⁶⁴⁾، بل أدى الأمر مع توالي السنين إلى ضعف ثقافة الوقف في المجتمع.

(61) أحمد الريسوني، الوقف الإسلامي مجالاته وأبعاده، الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، الأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت، 2001م. ص: 45 وما بعدها.

(62) حماد صابر، محاضرات في القانون الدستوري والمؤسسات السياسية، فاس، مكتبة المعارف الجامعية، 1415-1995م، ص: 34.
(63) I. M. DE GRANGE, Le waqf outil de développement, op. cit. p. 64.

(64) فؤاد عبد الله العمر، إسهام الوقف في بناء ودعم مؤسسات العمل الأهلي في مجال التنمية المجتمعية، أوقاف، العدد التجريبي، شعبان 1421هـ/نوفمبر 2000م. ص: 99.

بيد أن تعاطي الدولة الحديثة مع الشأن الاجتماعي في العقود الأخيرة شهد تحولات جذرية تمثلت في تخفيف الدولة الحديثة من وظائفها التقليدية وتقليص مساحات تدخلها في المجالات الاجتماعية التي كانت الدولة الشمولية أو الدولة الحارسة تعتبرها مجالا حيويا لها⁽⁶⁵⁾، وذلك بفعل "سياسات إعادة الهيكلة الاقتصادية، وما عرف بالإصلاح الاقتصادي، وخصخصة القطاع العام، وتخلي الدولة عن بعض مسؤولياتها الاجتماعية"⁽⁶⁶⁾.

ب. ضعف مشاركة المجتمع المدني في تمويل التعليم

بدأ الفقه المجتمعي يتقلص تدريجيا مع التطور الذي عرفته الدولة الحديثة في المجتمع الإسلامي منذ حقبة الاستعمار وبعد الدولة القطرية التي خلفته، فنتج عن ذلك دخول المجتمعات العربية والإسلامية في طور جديد اختلت فيه الموازين لحساب الدولة وعلى حساب الأمة⁽⁶⁷⁾، مما أدى إلى تهميش دور مؤسسات المجتمع المدني والأفراد في المشاركة في إدارة التنمية الوقفية من خلال مؤسسة الأوقاف.

ويعتبر مبدأ مشاركة المجتمع بأفراده ومؤسساته في تنفيذ القرارات التي تتخذها الدول، أحد الآليات الغائبة في مجتمعات المسلمين اليوم التي ألغت الاتكال على الدولة وأجهزتها. والدولة بدورها تزدادت على أغلب المساحات الاجتماعية، مما أنتج جملة من الاختلالات الهيكلية التي لا تزال تلقي بظلالها على كل محاولات النهضة والتقدم⁽⁶⁸⁾.

وعلى هذا فإن مسؤولية تمويل التعليم هي مسؤولية مجتمعية يجب أن تنهض بها جميع مؤسسات المجتمع المدني في علاقة تشاركية مع الدولة تقوم على أساس تخطيط استراتيجية تهدف إلى النهوض بالتعليم وتطويره وتجويده.

ويشير أحد الباحثين إلى أن "كفاءة المؤسسات الوقفية الأمريكية تنبع في حقيقة الأمر من نوعية علاقتها بالدولة حيث لا تضارب بينها وبين المؤسسات الحكومية بل نجدها تتخذ توجهات عملية

(65) مصطفى بن حمزة، الفقه الاجتماعي في الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدروس الحسنية لرمضان 1427هـ/أكتوبر 2006م. ص: 60.

(66) حامد عمار، مقالات في التنمية البشرية العربية، ط2، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م. ص: 21.

(67) محمد عمارة، دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجيات الأمة، ندوة نحو دور تنموي للوقف، ص: 168.

(68) طارق عبد الله، هارفاد وأخواتها: دلالات الوقف التعليمي في الولايات المتحدة الأمريكية، مجلة أوقاف، عدد 20، مايو 2011م، ص: 68.

وإن بدت مختلفة إلا أنها في بعدها الاستراتيجي تتسق مع روح وفلسفة الوقف كما عرفت التجربة الإسلامية. فهي تتكامل في ببعض الأحيان مع توجهات الدولة...⁽⁶⁹⁾.

ويعزى توسع الأوقاف ورسوخ ثقافة التبرع في المجتمع الأمريكي المعاصر إلى الدور الذي لعبته الدولة لتأمين بيئة تشريعية، وقانونية ملائمة لهذه الثقافة بل ومشجعة لها، من خلال توجهها الاستراتيجي في دفع فعالية المجتمع المدني بكونه الأداة الرئيسية للوصول إلى مشاركة حقيقية للمواطن في تقرير مستقبل مجتمعه⁽⁷⁰⁾.

ج. انحصار ثقافة الوقف في عملية بناء المساجد

ثقافة الوقف في المغرب منحصرة أكثر في عملية المساهمة في بناء المساجد وإصلاحها، فقد بلغت نسبة ما بناه المحسنون والجمعيات وما افتتح في وجه المصلين خلال هذه السنوات الأخيرة حوالي 79٪، بما يعادل 179 مسجدا. وهذا يعني أن الجمعيات لم تستفد من قانون التماس الإحسان العمومي⁽⁷¹⁾ إلا فيما يتعلق ببناء المساجد، أما القضايا التنموية الأخرى كالتعليم والصحة فلا توجد حسب علمي، جمعية أنشئت وطلبت الإحسان العمومي من أجل تحقيق غرض تعليمي أو صحي أو أي مجال اجتماعي آخر، إلا ما كان من جمعيات تؤسس من أجل الإشراف على بعض مؤسسات التعليم العتيق والتي تتلقى الدعم من المحسنين من أجل الإنفاق على هذه المؤسسات.

كما أن الحركة الوقفية في بعض النظارات في المغرب، عند مطالعة سجلاتها المتعلقة بالوقف خلال ست السنوات الأخيرة، تسير في اتجاه أوقاف المساجد وخاصة عند ضمها إلى حظيرة الأوقاف، كنظارات الرباط، فاس، مكناس، ومراكش، أما الأوقاف المتعلقة بالتعليم العتيق فهي قليلة، ففي مدينة الرباط تم تسجيل 17 وقفا جلها متعلقة بالمساجد إلا وقفين خاصين بالتعليم العتيق، الأول عبارة عن كتاب قرآني، والآخر عبارة عن قطعة أرضية لبناء مدرسة التعليم العتيق بمدينة تمارة تابعة لنظارة أوقاف الرباط. وفي مدينة فاس تم تسجيل ست حالات متعلقة بالوقف على الكتابات القرآنية وبعض المدارس العتيقة.

(69) طارق عبد الله، هارفاد وأخواتها، مرجع سابق، ص: 49.

(70) المرجع السابق، ص: 49.

(71) قانون رقم 004.71 بتاريخ 21 شعبان 1391هـ (12 أكتوبر 1971م) يتعلق بالتماس الإحسان العمومي.

ويتبين مما سبق، أن مستوى ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم قد تراجع بشكل ملحوظ مقارنة مع ما كان عليه في الماضي، مما يوجب على جميع الفاعلين في المجتمع الأخذ ببعض الآليات المقترحة للنهوض بثقافة الوقف من جديد.

رابعاً: مقترحات للنهوض بثقافة الوقف في المجتمع المغربي

إن التطور والتقدم التي تنشده المجتمعات العربية والإسلامية وخاصة في المجال التعليمي والتقدم العلمي والتكنولوجي رهين بسيادة ثقافة الوقف في المجتمع، وفيما يلي عرض بعض المقترحات لتحقيق هذا الغرض:

1. الاستفادة من صيغة سندات الوقف لجلب أوقاف جديدة خاصة بالتعليم

من الآليات التي تسهم في نشر ثقافة الوقف في المغرب، والتي لم يتم لحد الآن الاستفادة منها، الدعوة للوقف بصيغة "سندات الوقف" المنصوص عليها في المادة 140 من مدونة الأوقاف لجلب أوقاف جديدة خاصة بالتعليم أو غيره.

وتنص المادة السالفة الذكر على أنه "يجوز للسلطة الحكومية المكلفة بالأوقاف التماس الإحسان العمومي تلقائياً ودون سابق إذن لفائدة الأوقاف العامة عن طريق جمع تبرعات نقدية أو عينية أو عن طريق إصدار سندات اكتتاب بقيمة محددة تسمى "سندات الوقف"، تخصص مداخلها لإقامة مشاريع وقفية ذات صبغة دينية أو علمية أو اجتماعية.

يحدد شكل سندات الوقف المذكورة وكيفية إصدارها وطريقة الاكتتاب فيها وكذا كيفية جمع التبرعات بموجب قرار للسلطة الحكومية المكلفة بالأوقاف بعد المجلس الأعلى لمالية الأوقاف العامة.

والمرجع المغربي قد استثنى الأوقاف من الإذن المسبق لالتماس الإحسان العمومي⁽⁷²⁾ تبسيطاً للإجراءات وتحقيقاً للمصلحة العليا للوقف. ولعل طرح سندات الوقف للاكتتاب والترويج لها في مختلف وسائل الإعلام سيسهم لا محالة في الاستفادة من مصادر تمويل جديدة مما يؤدي إلى نشر ثقافة الوقف.

(72) تنص الفقرة الأولى من الفصل الأول من القانون رقم 004.71 بتاريخ 21 شعبان 1391هـ (12 أكتوبر 1971م) يتعلق بالتماس الإحسان العمومي، على أن "التماس الإحسان العمومي لا يجوز تنظيمه أو إنجازه أو الإعلان عنه في الطريق والأماكن العمومية أو بمنازل الأفراد من طرف أي شخص وبأي وجه من الوجوه إلا بإذن من الأمين العام للحكومة.

2. إنشاء الشركات الوقفية والدعوة للاكتتاب فيها

يعتبر الوقف المشترك مدخلا مهما للنهوض بالعملية التعليمية في العصر الحاضر، فهناك من المشاريع التنموية الكبرى التي لا يمكن تحقيقها إلا بالوقف المشترك بين المانحين والمحسنين كبناء الجامعات والمعاهد المتخصصة وتزويدها بالمعدات والأجهزة التكنولوجية الحديثة، ويجد الوقف المشترك تطبيقه الفعلي في الدعوة للاكتتاب في الشركة الوقفية مما يتيح لصغار المحسنين من المشاركة في المشروعات الكبرى بحيث يصبح رأسمال الشركة بعد الانتهاء من عملية الاكتتاب عبارة عن وقف مشترك.

ومن الأمور التي تسهم في إقبال المحسنين على عملية الاكتتاب الوقفية أن يتم إعداد مشاريع أولية لأغراض الشركة الوقفية من قبل الهيئة المشرفة، فمثلا يتم إعداد مشروع تأسيس مدرسة وقفية والتكلفة المالية لذلك، ثم دعوة المحسنين والجماهير والمؤسسات الخاصة والعامة والمقاولات والمنظمات للوقف عليها في جميع وسائل الإعلام، و"في مؤسسات البريد ومراكز التسوق والمستشفيات والأندية الرياضية"⁽⁷³⁾ وغير ذلك.

3. تطوير الكراسي العلمية في المساجد وإنشاؤها في الجامعات

تشرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالتعاون مع المجلس العلمي الأعلى على عدد من الكراسي العلمية في أهم التخصصات الدينية، ويبحث البعض منها على أثر قناة محمد السادس للقرآن الكريم.

ويمكن تطوير وظيفة هذه المؤسسة في برنامج التعليم المفتوح وتعليم الكبار، بحيث يمكن أن يصبح المسجد مؤسسة للتعليم المفتوح وذلك بإنشاء كراسي علمية تهم جل التخصصات الدينية والأدبية والعلمية والطبية والاجتماعية والدعوة للوقف عليها في المنابر الدينية والإعلامية، من أجل ضمان استمرارها، والتفاعل الاجتماعي مع هذه الدعوة سيسهم لا محالة في نشر ثقافة الوقف، وبهذا تستطيع مؤسسة الكراسي العلمية أن تحقق التعليم المفتوح وتعليم الكبار بمفهوم تنمية مهارات الذات لملاحقة التطورات الحديثة، والوقف في هذه الحالة سيكون له عائد اجتماعي وأثر في التقليل من ظاهرة البطالة التي مست حاملي الشهادات العليا بحيث يمكن توظيفهم في هذا المجال.

(73) حسن الرفاعي، الوقف على المؤسسات التعليمية - كلية التكنولوجيا نموذجاً - أوقاف، عدد 12، السنة السابعة، جهاى الأولى 1428هـ/ مايو 2007م، مرجع سابق، ص: 77.

كما يمكن أن يسهم إنشاء الكراسي العلمية في الجامعات والدعوة للوقف عليها في نشر ثقافة الوقف في الأوساط التعليمية والأكاديمية خاصة في التخصصات العلمية التي لا تجد التمويل من أجل إنشائها، ففي أمريكا تهتم "الجامعات بتطوير البرامج الأكاديمية وطرحها على المتبرعين من خلال الكراسي الوقفية التي تعتبر رمزا للتميز العلمي بما توفره من إمكانيات تدريسية أو بحثية في البرامج الأكاديمية"⁽⁷⁴⁾.

4. تضمين مناهج التعليم مادة عن الوقف ودوره التنموي

التعليم له دور كبير في النهوض بالثقافة الوقفية في المجتمع من خلال تضمين مناهج التعليم في جميع المراحل والمستويات مادة أساسية عن الوقف ودوره التنموي وحماية وتأمين حاجات المجتمع، ذلك أنه خلال عقدين من الزمان، يبدأ الجيل المتخرج من التعليم في الفعل الاجتماعي في جميع التخصصات وفي جميع مناحي الحياة، وسيكون لما تلقاه خلال سنوات تعليمه وتثقيفه أثر في تكوين ثقافة الوقف والتبرع لديه، أي أن مخرجات التعليم ستكون عبارة عن جيل من الواقفين المتبرعين بأموالهم وأوقاتهم وخبراتهم وكل ما رزقهم تعالى في الحياة لما للمنفق في سبيل الله من الأجر والثواب العظيم مصداقا لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَةَ وَلَا شَفَاعَةَ﴾⁽⁷⁵⁾.

استثمار وسائل الاتصال الحديثة في تداول ثقافة الوقف

وسائل الاتصال الحديثة متنوعة، وأجيالنا الحاضرة والمستقبلية أصبحت تعتمد على هذه الوسائل، ولذلك لا بد من استثمارها في تداول الثقافة الوقفية بحسب الأعمار المختلفة، وتهيأ الثقافة الوقفية في شكل يناسب المستويات العمرية، إما على شكل مواد سمعية أو بصرية أو رسوم متحركة أو ألعاب مشوقة، كما فعلت الأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت فيما يخص لعبة ثقافة الوقف، أو مادة مكتوبة أو أي وسيلة أخرى... والهدف هو تفاعل جميع أفراد المجتمع مع فكرة الثقافة الوقفية ودورها التنموي باستثمار كل وسائل الاتصال الحديثة.

(74) طارق عبد الله، هارفاد وأخواتها: مرجع سابق، ص: 60.

(75) سورة البقرة، الآية: 254.

خاتمة:

- إسهام فقه الحاجات في توجيه حركة المجتمع الأهلي وشيوع ثقافة الوقف؛
- اضمحلال الفقه المجتمعي وما ترتب عن ذلك من ضعف ثقافة الوقف بفعل التغيرات التي حدثت في المجتمع المغربي خلال القرن العشرين؛
- تراجع ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم في المجتمع المغربي الحديث بشكل ملحوظ مقارنة مع ما كان عليه في الماضي؛
- إسهام الدولة في تمويل التعليم العتيق بحوالي ثلاثة أرباع، ثم الخواص من جمعيات وأشخاص ذاتيين، وأخيرا مساهمة الميزانية الخاصة بالأوقاف العامة؛
- انحصار ثقافة الوقف في عملية بناء المساجد؛
- ضرورة الأخذ ببعض الآليات المقترحة للنهوض بثقافة الوقف في المجتمع المغربي الحديث.

لَمَحَةٌ عَنِ الْخَطِّ "الصَّخْرَاوِيِّ" -المفهوم والأوضاع-

د. محمد الطبراني

كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش

أَوَّلُ مَا يَبْدُو النَّاطِرَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، تَقْرِيرُ الْعُسْرِ اللَّاحِقِ بِمَنْ يَعْزِضُ لِتَصْنِيفِ ضُرُوبِ الْخَطِّ الْمَغْرِبِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَلَا سِيَّما إِذَا مَا قِيسَ إِلَى الْخَطِّ الْمَشْرِقِيِّ، وَهُوَ مَا أَفْصَحَ عَنْهُ ابْنُ خَلْدُونٍ عِنْدَ عَقْدِهِ الْمُقَارَنَةِ بَيْنَهُمَا فِي سِيَاقِ التَّعَلُّمِ فَقَالَ: "وَنَجِدُ تَعْلِيمَ الْخَطِّ فِي الْأَمْصَارِ الْخَارِجِ عُمَرَاءُهَا عَنِ الْحَدِّ أَبْلَغَ وَأَسْهَلَ وَأَحْسَنَ طَرِيقًا؛ لاسْتِحْكَامِ الصَّنْعَةِ فِيهَا، كَمَا يُحْكِي لَنَا عَنْ مَضَرِّ هَذَا الْعَهْدِ، وَأَنَّ بَهَا مَعْلَمِينَ مُتَنَصِّبِينَ لِتَعْلِيمِ الْخَطِّ، يُلْقُونَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ قَوَانِينَ وَأَحْكَامًا فِي وَضْعِ كُلِّ حَرْفٍ، وَيَزِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمُبَاشَرَةَ بِتَعْلِيمِ وَضْعِهِ، فَتَعْتَضِدُ لَدَيْهِ رُبَّةُ الْعِلْمِ وَالْحُسَّ فِي التَّعْلِيمِ، وَتَأْتِي مَلَكَتُهُ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ.... وَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي تَعَلُّمِ الْخَطِّ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ كَذَلِكَ، فِي تَعَلُّمِ كُلِّ حَرْفٍ بَانْفِرَادِهِ، عَلَى قَوَانِينَ يُلْقِيهَا الْمُعَلِّمُ لِلْمُتَعَلِّمِ، وَإِنَّمَا تُتَعَلَّمُ بِمَحَاكَاةِ الْخَطِّ فِي هَاتِهِ الْكَلِمَاتِ جُمْلَةً وَتَكَرَّرُ ذَلِكَ مِنَ الْمُتَعَلِّمِ وَمُطَالَعَةِ الْمُعَلِّمِ لَهُ، إِلَى أَنْ تُحْصَلَ لَهُ الْإِجَادَةُ، وَتَتِمَّكَنَ فِي بَنَانِهِ الْمَلَكَةُ، فَيُسَمَّى مُجِيدًا"¹.

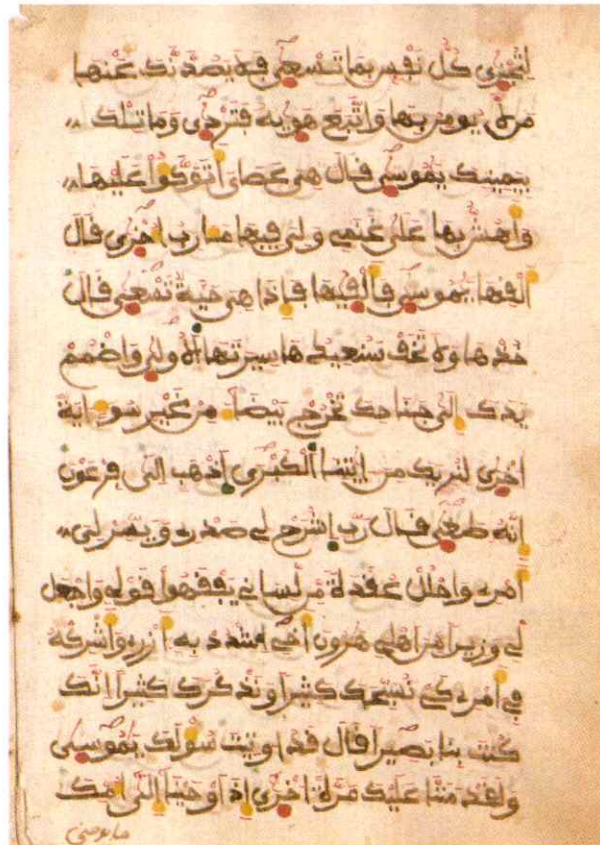
وَمِنْ هَاتِهِ الْبَابَةِ، نَقَرُّ أَنَّ إِطْلَاقَ الْقَوْلِ بِهَذَا الْمَرْكَبِ الْإِسْنَادِيِّ الَّذِي هُوَ "الْخَطُّ الصَّخْرَاوِيُّ"، وَخَلَعَ صِفَةَ الْإِصْطِلَاحِ عَلَيْهِ، مُحَضَّزٌ تَجَوُّزٌ؛ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ أَصْلٍ يُرْجَعُ إِلَيْهِ، وَلَمْ أَقِفْ عَلَى أَنْمُودَجٍ تَمَثَّلُ بِهِ النَّاسُ، وَالَّذِي بِالْيَدِ مِمَّا زَعَمَهُ الْبَعْضُ² أَنَّهُ فَرَعٌ عَنِ الْمَجْوَهَرِ، وَهُوَ قَسِيمُ الْفَاسِيِّ وَالسُّوسِيِّ، لَكِنَّهُ مَا مِنْ مَثَالٍ مُرْفَقٍ يَزَكِّي هَذَا الْإِصْطِلَاحَ فِي التَّقْسِيمِ، وَيُفْصِلُ بَيْنَ السُّوسِيِّ وَالصَّخْرَاوِيِّ.

1 - المقدمة (تح الشدادي): 312/2-313.

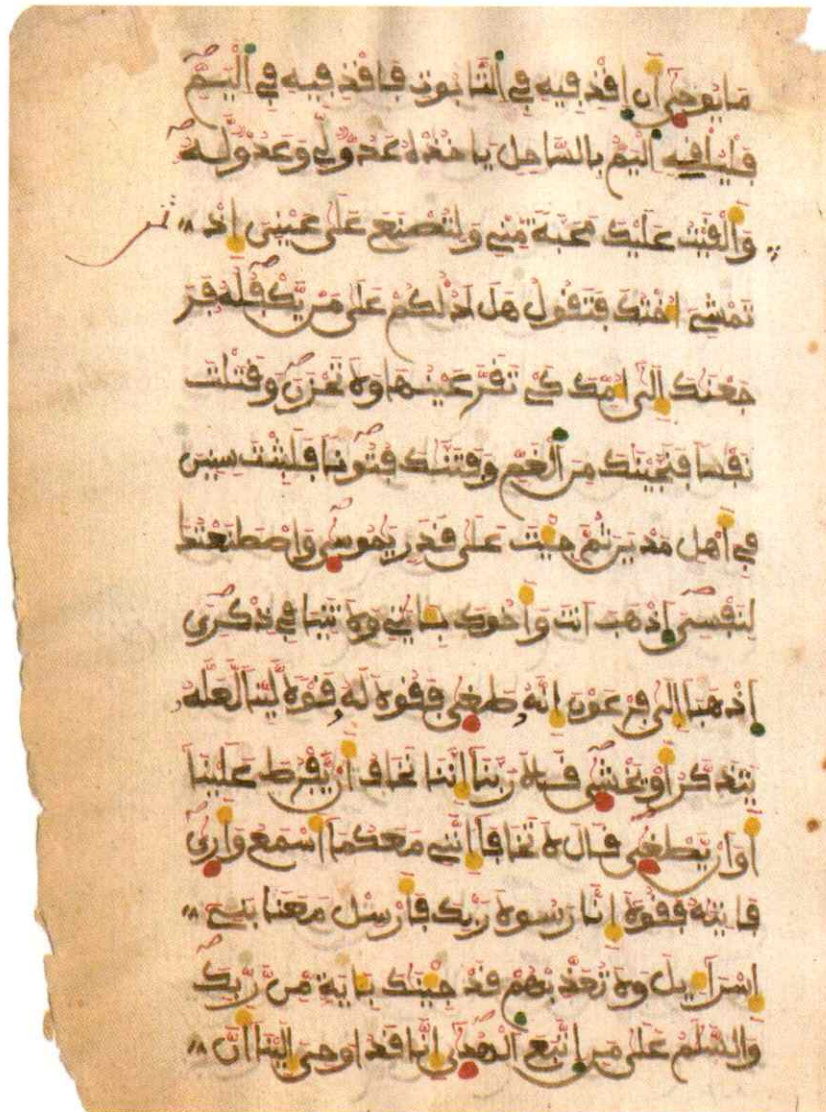
2 - جائزة محمد السادس لفن الخط المغربي، الدليل المرجعي: الدورة الرابعة: 1432 هـ / 2011 م: ص 35.

والذي تشهد له المخطوطات أنه ما من فصل واقعي بين السوسي والصحراوي، فيؤول الأمر إلى أن الذي نقصد إليه هو السوسي حتماً، ولا عبرة بتسمية أخرى لا تقع على مثال صحيح.

وحتى نسبة السوسي، فإنها نسبة للصقع بالغلبة على ما يقع في مكاتيبه، بحكم الوجود العيني المتحقق في مخطوطاته، ولا تؤول إلى تصنيف معياري للخطوط. وهو بعد هذا يكاد يمثل - كما سيأتي وشيكاً - الخط القيرواني في أزداء صورته، بعد انفكاكه عن قدر كبير من الملاحظة والحسن. وهو ما وسّم الخطوط المتأخرة منذ عهد ابن خلدون، حين "صار الخطوط بإفريقية والمغرب مائلة إلى الرداءة، بعيدة عن الجودة، وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لتصفحها منها إلا العناء والمشقة؛ لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة، حتى لا تكاد تُقرأ إلا بعد عشر³."



صفحة مصحف بخط مغربي سوسي



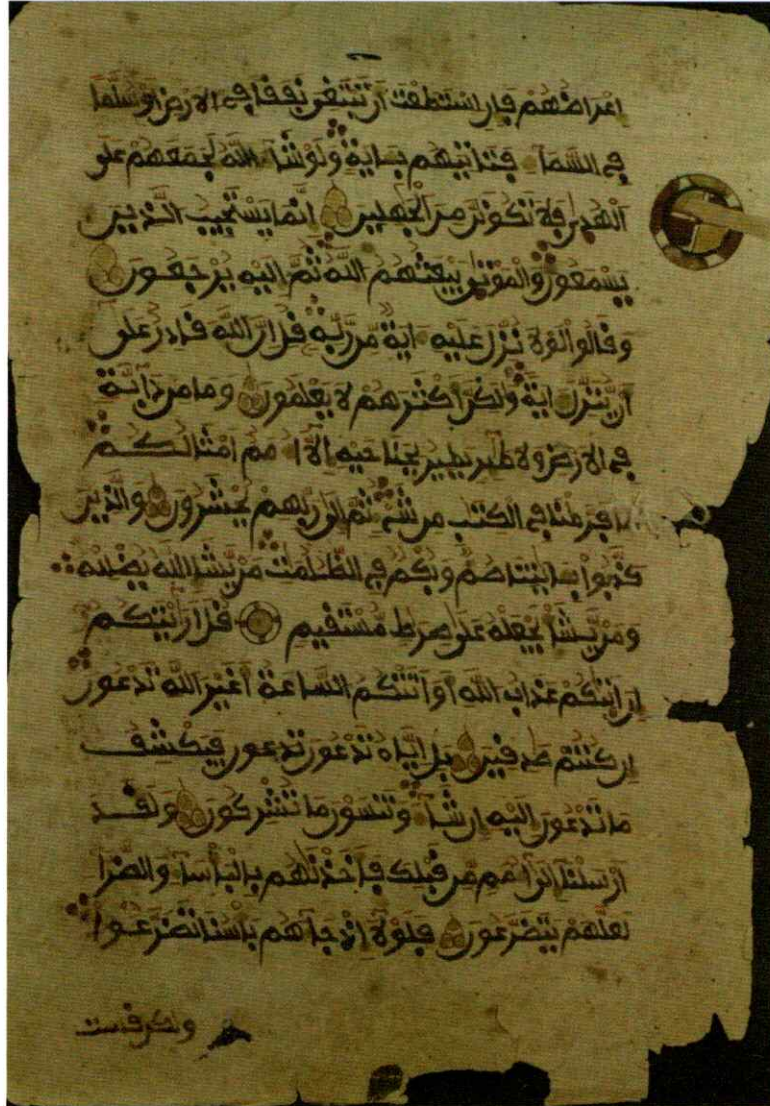
صفحة ثانٍ من مصحف بخط مغربي سوسي

وقد يُقال بعدُ إنَّ هذا الخط مُشتقٌّ عن الخطِّ المبسوط⁴، لكنَّه ما من سماءٍ مطرودةٍ تُربطه به بعدُ التَّأمل، فغالبُ أوضاعه نافرةٌ عن موافقة شكله العام، بل هو أقربُ إلى "خطِّ بلادِ الجريد"، الذي يؤوِّل بدوره إلى الخطِّ الكوفي إن لم نقل بشكلٍ أدق، إلى الخطِّ القيرواني.

وقد أشار ابنُ خلدون إلى هاته الحقيقة من رَبط خطِّ بلادِ الجريد بالقيرواني، خلافاً لمن يُربطُه بالأندلسي فقال: "وأما أهلُ الأندلس فافترقوا في الأقطار... وانتشروا في عُدوة المغرب وإفريقية من

4 - جائزة محمد السادس لفن الخط المغربي، الدليل المرجعي: الدورة الرابعة: 1432 هـ / 2011 م: ص 35.

لدى الدولة اللّمتونية... وشاركوا أهل العُمران بما لديهم من الصّنائع، وتعلّقوا بأذيال الدّولة، فغلب خطُّهم على الخطّ الإفريقي وعفّي عليه، ونُسِي خطُّ القيروان والمهدية بنسيان عَوائدهما وصنائعهما، وصارت خطوطُ أهل إفريقية كلّها على الرّسم الأندلسيّ بتونس وما إليها؛ لتوفّر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس، وبقي منه رسمُ ببلاد الجريد الذين لم يُخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرّسوا بجوارهم؛ إذ إنّها كانوا يقدّون على دار الملك بتونس⁵.



صفحة من مصحف بخط بلاد الجريد (غرب إفريقيا، تنبكتو)

5 - المقدمة (تح الشدادي): 317-318.



صَفْحٌ يَظْهَرُ فِيهِ التَّأَثُّرُ الْوَاضِحُ بِالْخَطِّ الْقَيْرَوَانِيِّ، وَتَضُمُّجِلٌ
فِيهِ آثَارُ أَوْضَاعِ الْخَطِّ الْأَنْدَلُسِيِّ (ق 12 هـ).

وَأَيَّامًا مَا كَانَ، فَهَذَا الْخَطُّ يَنْتَظِمُ فِي سِمَطِ خُطُوطِ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ، اسْتَمَدَ حَدَّهُ مِنْ مَوْطِنِهِ؛
بِلَادِ الْجَرِيدِ (غَرْبِ إِفْرِيْقِيَّةِ)، مَتَأَثِّرًا بِخَطِّ حَاضِرَةِ الْقَيْرَوَانِ وَالْفَاتَحِينَ أَصْحَابِ دَعْوَةِ الْمُتَمَثِّلِينَ وَمَنْ
أَتَى بَعْدَهُمْ.

فَكَأَنَّ فِي هَذَا الْخَطِّ حِمُولَةً تَنَازَعَتْهَا الْخُطُوطُ الْكُوفِيَّةُ الْيَاسِيَّةُ، وَأُخْرَى مُقَوَّرَةٌ لَيِّنَةٌ. إِلَّا أَنَّ الْبَدَاوَةَ
وَالْبُعْدَ عَنِ الْعُمَرَانِ، قَعَدَا بِخَطِّ بِلَادِ الْجَرِيدِ عَنْ مَرْتَبَةِ التَّجْوِيدِ، كَمَا يَظْهَرُ فِي الْوُثَائِقِ وَالْمَخْطُوطَاتِ
الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا.

وأما عند وصف خط بلاد الجريد، فلنأخذ أن نقول إنه إذا كان التجويد في عرف أهل فن الخط لا يكون إلا على مثال، فإن خط بلاد الجريد تظهر فيه - على عوج - علائق التشبه بالمثال المحكي (القيرواني ثم المغربي)، إلا أن أثر المعلم يكاد يكون منعدماً؛ وقد قيل: إن الخط مخفي في تعليم الأستاذ.

وحسن الكتابة وجودتها، نحكم بهما على الخط من زاويتين: صحة أشكال الحروف، وصحة أوضاعها. وسنعرض بهذا الاعتبار للقول في أشكال حروف خط بلاد الجريد:

• فالألف:



الألف في هذا الخط فريد عن مثله؛ فإذا كانت الاستقامة على كرسي الكتابة خصيصة ألفات خط المغرب الإسلامي كلها، فقد اعتراه هنا ميلان مطرد. ثم إنه عري من الحلية في رأسه، ومن الزائدة الكوفية عند قدمه.

• الباء وأخواتها:



الباء يابسة على الأصل الأول الكوفي، إلا أنها هنا ختمت بعد جزئها الثاني المسطح بحركة القلم؛ المفروض فيها أن تكون محرفة بذيل، وهذه زيادة لا أصل لها في القيرواني والمغربي.

• الجيم وأختها:



إذا كانت الجيم حسب المراجع المزعومة في الخطوط المغربية، شكلاً مركباً من خطين؛ مقوس ونصف دائرة. فإن الجيم في هذا المثال، ثلاثة أجزاء.



• الدَّالُّ وأختها:

أخذت الدَّالُّ الشَّكْلَ المشتهر في الخطِّ الأندلسيِّ ومبسوطِ المغربِ الأقصى، لكنَّها بَعُدَتْ عن الحُسْنِ لِمَا حُوْكِيَتْ.

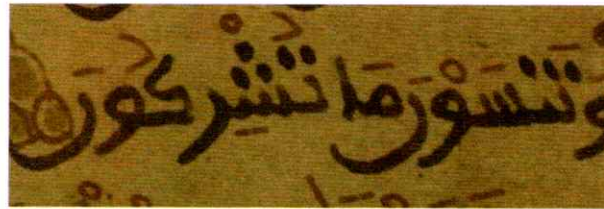


• الرِّاء وأختها:



الرِّاءُ من أَصْعَبِ الحروفِ رِسْمًا، وَمَبْنَاهَا من سِنٍّ وخطِّ مقوَّسٍ هو رُبْعُ دائرة، وهذا القوَّسُ عند المغاربة يُرَسَّمُ دقيقًا لا تَقْدِرُ عليه إِلَّا يَدٌ متمكِّنةٌ فقيهةٌ بتقلُّبِ سَيْرِ اليرَاعِ على القرطاس. وذاك القوَّسُ في المثالِ أعلاه ثخينٌ وغَشِيمٌ.

• السَّيْنُ وأختها:



السَّيْنُ هنا لم تتخلَّصْ من مؤثَّراتِ الأشكالِ الكوفيَّةِ، فلم تَلِنْ، وحافظتْ على سَيْرِها المَزَوَّى. إِلَّا أنَّها أحيانا بحكمِ سرِّعةِ الكتابةِ تظهرُ فيها تقويَّساتٌ تنحو بها إلى سيِّئِ الخطوطِ اللَّيِّنةِ. (السَّيْنُ الأولى مَزَوَّاةٌ، وفي الثانيةِ بعضُ اللَّينِ).

• الصَّادُ وَأَخَوَاتُهَا:



شَرَدَتِ الصَّادُ عَنْ نَهْجِ المِثَالِ الكُوفِيِّ والمَغْرِبِيِّ. فليس لها شَبَهٌ فيما يُعْتَمَد، وكَأَنَّهَا مَشْرِقِيَّةُ الجُذْمِ، فلا هي مَقَوَّسَةٌ الأَعْلَى ولا مُسَطَّحَةٌ، وإن وُجِدَ هذا الوُصْفُ لِمَا مَّا. وفي هذا دلالة على عدم رسوخ أشكالِ خطِّ بلادِ الجريد.

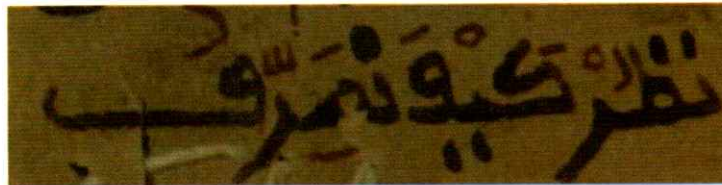
ونلاحظُ الطَّاءَ في المِثَالِ أعلاهُ كيف يَنْفَرُ منها ذَوْقُ ذَوِي الطَّبَعِ السَّلِيمِ.

• العَيْنُ وَأَخْتُهَا:



فيها إشارةٌ إلى الوُضْعِ الكُوفِيِّ، وقد اعتراها من الصَّغَرِ ما أثارَ على تناسُبِهَا.

• الفَاءُ والقَافُ:



الفَاءُ في شكلِهَا العَامِّ لَمْ تَخْرُجْ عن الرِّسْمِ المَعْهُودِ في الخطِّ الكُوفِيِّ، فهي من الحروف التي لَمْ تُعَرَفْ كثيرٌ تَبَدُّلٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُتَوَسِّطَةً، فَقَدْ أَصَابَهَا من التَّبَدُّلِ ما يُعَرَفُ في مَحَلِّهِ. والقَافُ مُوَلَّدَةٌ من التَّوْنِ أَخَذَتْ كَأَسْهَا فَوُضِعَ فَوْقَهُ تَرْوِيسُهَا.

• الكاف:



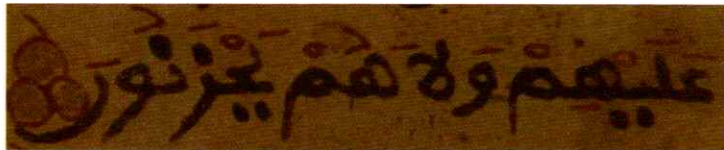
يتكوّن الكافُ قولاً واحداً من خطٍّ مُنكَبٍّ ومُنسَطٍّ ومُنْتَصَبٍّ فمُنسَطٍّ. وهو ما حافظ عليه كُتُبَةُ خطِّ بلاد الجريد، مع تقصيرٍ في تمام الوصفِ الحَسَن.

• اللام:



اللام خطٌّ مُنْتَصَبٌّ وآخرُ مُقَوَّسٌ، والملاحظ أن الكتاب هنا لا يكتبونه إلا مُعَرَّقاً -أقصد الجزء الثاني المقوَّس - غيرَ مُستوفٍ لشروطِ التّعريق؛ كجعل الحُرْكة كُلِّها نصفَ دائرةٍ، مع رِقَّةٍ في جُسمِها.

• الميم:



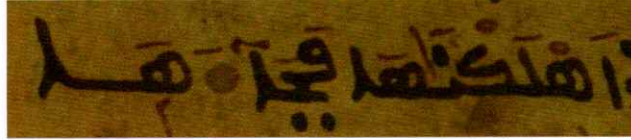
اتَّفقت الميمُ في وُضعِها على ما استقرَّ في باقي الفروع الأخرى اللَّيِّنة كالمبسوط، على وُصفٍ يقارب الحُسْن، لولا ما لحِقَها من بَثْرٍ في جزئِها الأخير الذي هو كالذَّيْل، الذي لا يبلغُ التَّمامَ إلا بِمُكْنَةٍ من الخُطَّاط.

• النون:



النُّونُ حَرْفٌ مَكُونٌ مِنْ خَطِّ مَقْوَسٍ؛ هُوَ نَصْفُ دَائِرَةٍ، وَفِيهِ سَنٌّ فِي الْبَدءِ. إِلَّا أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ عَرِيٌّ عَنْهُ النَّمُودَجُ أَعْلَاهُ حَتَّى أَشْبَهَ الرَّاءَ. وَيَصْدُقُ عَلَيْهِ مَا قِيلَ آنِفًا فِي تَعْرِيقَةِ النَّونِ.

• الهاء:



لَمْ تَزَعْزَعْ عَنِ السَّنَنِ الْكُوفِيِّ، إِلَّا مَا أَصَابَهَا مِنْ لُيُونَةٍ وَانْفِتَاحِ زَائِدٍ فِي بَيَاضِهَا. وَهِيَ عَمُومًا تَجِيءُ عَلَى أَضْرَبِ شَيْءٍ تُسْتَقْصَى فِي مِظَانِهَا. وَهِيَ هُنَا جِيءَ بِهَا مِثْلَةٌ فِي الْوَضْعِ.

• الواو:



الْوَاوُ حَرْفٌ مَوْلَّدٌ مِنَ الرَّاءِ، يَنْسَجِبُ عَلَيْهِ مَا قَدْ فَصَّلَ فِيهِ الْقَوْلُ آنِفًا؛ خُصُوصًا فِي جِزْئِهِ الْآخِرِ. أَمَّا التَّرْوِيسُ فَقَدْ جَاءَ وَفَّقَ النَّعْتِ الْمَرْضِيِّ الْمَعْلُومِ.

• الياء:



كَأَنَّ الْيَاءَ اخْتَزَلَتْ فِي هَذَا الْأَنْمُودَجِ؛ إِذْ أَنَّ الْجِزْأَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ لَمْ يَبْقَ مِنْ رَسْمِهَا إِلَّا جِزْءٌ مَنْسَطَحٌ تَمَسَّكَ فِيهِ كَاسَتُهُ أَوْ تَعْرِيقَتُهُ. وَهَذَا مَرْدُّهُ ضَعْفُ الصَّنْعَةِ.

تم بحمد الله

ديوان العبد

سِبْطُ الرَّسُولِ مَلِيْكُنَا

الشاعرة فاطمة الوزاني الشاهدي

صفرو

(طويل)

وَحَيْرُ الْمُلُوكِ الْمُبْجَلِينَ وَدُرُّهُمْ
وَنَجْلُ الْمُفَدَّى بِالْمَسِيرَةِ فَاقَهُمْ
يَزِينُهُ حِلْمٌ فِي السِّيَاسَةِ بَذَهُمْ
وَفِي الْعِلْمِ جَازُ النَّابِغِينَ وَعِلْمُهُمْ
لَكُمْ دَانَ قَاصِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ كُلُّهُمْ
لَكُمْ صَيْتُكُمْ فِي الْأَبْعَدِينَ وَحُبُّهُمْ
لِحُكَّامِ عُرْبٍ، فِي الْعَوَادِي مَلَاذُهُمْ
وَلَاءٌ وَإِخْلَاصٌ رَبَّاهِ خَيْرُهُمْ
فَأَعْطَتْ مِنَ الْأَصْدَاءِ وَالطُّيْبِ حُلُوَّهُمْ
حِيَالُ الْمُلُوكِ النَّيِّرَاتِ وَجُوهُهُمْ
فَفَاقَ السَّنَا مِنْكُمْ بُدُورًا وَنُورَهُمْ
تَوَارَى خَجُولًا لِلْعُطَافِ وَرِيحُهُمْ
سَقَيْتُمْ رَعَايَاكُمْ فَيُوضًا حَلَّتْ لَهُمْ
وَعَزَمَ إِذَا مَا اسْتَعْسَرَ الْأَمْرُ عِنْدَهُمْ
لِطَلَابِ عَوْنٍ لَوْ تَفَاقَمَ حَالُهُمْ
وَفِي عَطْفِكُمْ خَيْرٌ وَفَيْرٌ يَنَالُهُمْ
فَفِي مَنَعِ تَشْغِيلٍ يَكُونُ صَلاَحُهُمْ
لِعَيْشِ كَرِيمٍ مَا يُنْغِصُ صَفْوُهُمْ
فَقَدْ دَاسَهَا بَطْشُ الرِّجَالِ وَجَوْرُهُمْ

سَلِيلُ الْمُلُوكِ الْأَكْرَمِينَ وَسِبْطُهُمْ
وَسِبْطُ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى جَلَّ ذِكْرُهُ
هُوَ الْعَبْقَرِيُّ الْفَذُّ لَانِدَّ بَذَهُ
فَفِي أَبْحَرِ الدِّينِ الْفَقِيهَ مُبَرِّزُ
بِكُمْ سَادَ عَدْلٌ وَالْأَنَامُ تَنَعَّمُوا
هُوَ الْحَزْمُ فِي كُلِّ الْمَوَاقِفِ سَابِغُ
لَأَنْتُمْ مَنَارٌ فِي السِّيَاسَةِ سَاطِعُ
سَكَنَتْ قُلُوبًا بِالْمَحَبَّةِ أَزْهَرَتْ
غَرَسْتُمْ أَمَانًا وَالْغُرُوسُ تَسَامَقَتْ
مَتَى الزُّهْرُ شَعَّتْ فِي سَمَاهَا تَرَا جَعَتْ
وَأَنْتُمْ ثَرِيًّا قَدْ تَعَالَتْ وَطَاوَلَتْ
كَذَاكَ الشَّذَى جَادَتْ وَرُودٌ بِرِيحِهِ
نَهَلْتُمْ عَلَومًا مِنْ حِيَاضِ غَزِيرَةٍ
قَضَّيَا الرِّعَايَا كَمْ حَلَلْتُمْ بِحَدْبِكُمْ
وَأَنْتُمْ مَلَاذٌ لِلْأَنَامِ وَقِبْلَةٌ
فَفِي جَرَّةِ الْأَقْلَامِ تُنْهَى مَسَائِلُ
رَعَيْتُمْ صِغَارًا مِنْ تَعَسَّفِ ظَالِمِ
فَفِي ذَاكَ عِلْمٌ وَالْمُنَاحُ مُهَيَّأُ
حَمَيْتُمْ فَتَاةً مِنْ زَوَاجِ مُبَكَّرِ

كَذَلِكَ النَّسَاءُ أَنْزَحَ عَنْهُنَّ مُطْبِقُ
مَتَى سَحَّ دَمْعٌ لِلضَّعَافِ فَكَفُّكُمْ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ تَوَاضَعِ عَـاِهِلٍ
فَهَلْ رَسُمٌ مَكْنُونٌ تَقِي بِهِ كَلِمَةً
أَرَى كُلَّ أَصْوَاتِ اللُّغَاتِ تَخُونُنِي
فَإِنِّي وَإِنْ أُوتِيَتْ وَسْعًا وَقُدْرَةٌ
وَتَعْدَادٍ مَا جَاشَ الْيِرَاعُ بِرَسْمِهِ
فَاحْتَارُ مِنْ أَيْنَ الْبِدَايَةِ أَوَّلًا
فَيَارِبِّ بِالْقُرْآنِ صُنْهُ وَكُنْ لَهُ
فَنَصْرٌ مَكِينٌ فِي الْمَحَافِلِ كُلِّهَا
فَيَبْقَى إِمَامًا شَاخِحًا مُتَعَاظِمًا

مِنْ الهمِّ وَالْحُزَنِ الدَّيْنِ وَثَقْلِهِمْ
تَرَاهَا هَمَّتْ فَيَضًا يُسَاقِبُ دَمْعَهُمْ
وَحَبٌّ مَكِينٌ لِلرَّعِيَّةِ نَـاَهُمُ
لَهَا مِنْ حُرُوفِ الْعِشْقِ حَاءٌ وَبَاؤُهُمْ
لِيَوْصِفِ الْمُلُوكَ السَّامِقِينَ وَمَدْحِهِمْ
لَأَعْيِي حِيَالَ الْأَكْرَمِينَ أَصْوَهُمْ
فَبِالْمَكْرَمَاتِ الْكَثْرِ فَاضَتْ صَحَافُهُمْ
وَأَجْلَوْ بِصَدَقِ مَا أَحْسَسُ تُجَاهَهُمْ
مُعِينًا لَوِ الْأَعْدَاءِ زُجَّتْ أَنْوْفُهُمْ
وَفَوْزٌ عَلَى مَنْ اسْتَطَالَتْ نِيُوبُهُمْ
وَبَدْرًا سَمَا فَوْقَ النُّجُومِ وَنُورُهُمْ

فهرس العدد:

افتتاحية 7

ملف العدد

- ذكرى ثورة الملك والشعب شهادة تاريخية على التحام العرش والشعب

ذ. عبد الحق المريني 11

- سوسيولوجيا أدب المقاومة في إفريقيا الجنوب المغربي نموذجا

محمد الترسالي 15

- موقف إسبانيا من الاعتداء على العرش يوم 20 غشت 1953م

ذ. محمد الأندلسي 25

- قراءة في كتاب: مذكرات مؤسس وقائد مقاتل في صفوف جيش التحرير لمحررها:

عبد العزيز أقضاض الدوائري (إعداد وتقديم: محمد لخواجة)

ذ. أحمد الأزمي 45

- تكوين الشباب وتأهيله: رؤية في المناهج التربوية وآفاق المستقبل

ذ. محمد بن محمد الحجوي 65

- الدبلوماسية الدينية المغربية ونشدان تحقيق الأمن الروحي في المغرب والبلدان الإفريقية

ذ. أمينة مزبغة 81

مقالات داعمة

- تدبير التعدد الثقافي في التجربة المغربية من خلال الخطب والرسائل الملكية
ذ. عبد الوهاب الجايي 95
- ثقافة الوقف في مجال تمويل التعليم العتيق في المجتمع المغربي الحديث
ذ. عبد الكريم العيوني 107
- لَمَحَةٌ عَنِ الْخُطِّ "الصَّخْرَاوِيِّ" - المفهوم والأوضاع -
د. محمد الطبراني 129

ديوان العدد

- سِبْطُ الرَّسُولِ مَلِيكُنَا (على بحر الطويل)
الشاعرة فاطمة الوزاني الشاهدي 141
- فِي رِحَابِ الْهُدَى
الشاعر محمد البلغمي 143

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

■ أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلماً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.

■ أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.

■ ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.

■ في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.

■ في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.

■ تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.

■ ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.

■ البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com

■ ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

■ الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.

■ ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاو الأعداد المقبلة:

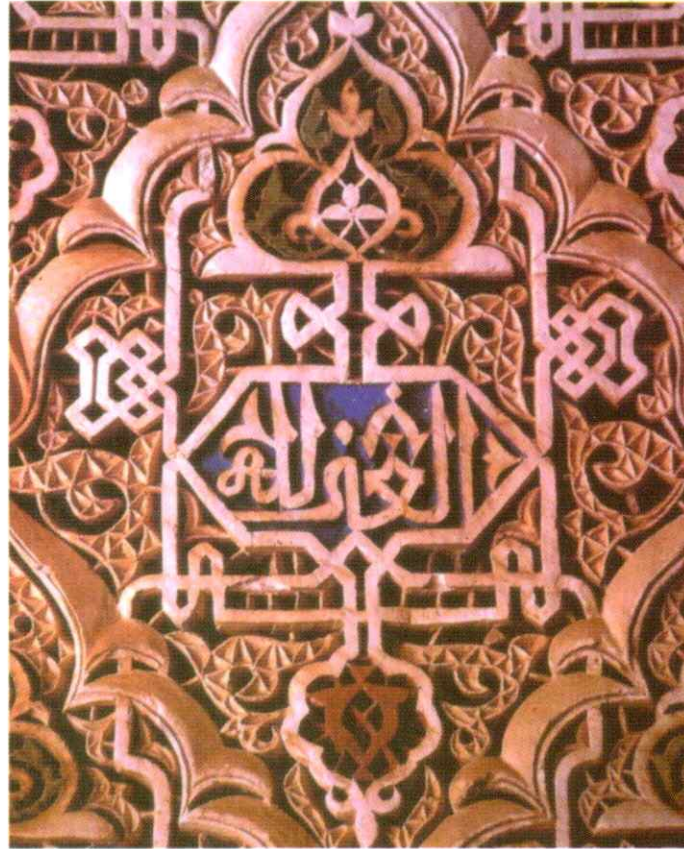
تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاو الآتية:

1- مقاصد الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف.

2- المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي.

3- فقه العمران في المذهب المالكي.





دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية